الفصل الأول

الحياة الفكرية للشيخ المستنير محمد عبده

ولد الشيخ محمد عبده عام ١٨٤٩ م وتوفى فى الحادى عشر من شهر يوليو عام ١٩٠٥ م . وكان حتى اللحظات الأخيرة التى سبقت وفاته شعلة نشاط . ومن يطَّلع على العديد من الكتب والرسائل والمقالات التى تركها لنا الإمام محمد عبده يدرك تمام الإدراك أننا فى عالمنا العربى فى أمسِّ الحاجة - وحتى فى أيامنا الحالية - إلى الاستفادة من آرائه ومن الفتاوى التى أصدرها ومن تمسُّكه بتأويل النص الدينى حتى يتفق وروح العصر، أى : متطلبات الأيام التى نعيشها ، وأيضاً نجد فائدة كبرى من حملته العنيفة ضد أهل الجمود والتقليد .

obeikandi.com

obeikandl.com

كانت حياة الشيخ محمد عبده حياة حافلة وغاية فى الثراء ؛ لقد استطاع وضع بصماته القوية على تاريخ التجديد الفكرى والإصلاح الدينى، وليس بإمكان منصفٍ التجاوز عن الإنجازات الفكرية لشيخنا الإمام .

لقد كانت حياته تسودها مشكلات ومعارك لا حصر لها ، وهذا كان شيئاً متوقعاً لأنه ارتضى لنفسه الحركة وليس السكون، ارتضى لنفسه التجديد وليس التقليد ، وآثر البعث الفكرى لأن فيه الحياة ، فى حين أن التقليد يمثل الجمود والموت . لقد كان ابن سينا فيلسوف المشرق العربى يناجى الله تعالى فى دعائه قائلاً : يا فالق ظلمة العدم بنور الوجود . وهذا إن دلنا على شىء فإنما يدلنا فعلاً على أن الظلام يرتبط بالعدم والفناء، تماماً كحياة الخفافيش التى تفضِّل أن تعيش فى الكهوف والمغارات حيث الظلام ، وذلك على العكس تماماً من النور الذى يرتبط بالوجود .

ومعنى هذا أننا إذا أردنا لأنفسنا الوجود والبقاء والاستمرار ، فلابد أن نرتضى لأنفسنا النور والتنوير ، التجديد والإصلاح ، أما إذا آثرنا الظلام ، فمعنى هذا أننا نقول للحياة : وداعاً ، وإذا صعدنا ، فإن هذا الصعود سيكون صعوداً إلى الهاوية والعياذ بالله .

وحياة المجدِّد لابد أن تختلف جذرياً عن حياة المقلِّد ؛ فالمجدِّد لا يتخلى عن العمل والكفاح والإبداع ، ولا يكون عالة على الآخرين مثل المقلِّد . فإذا أراد المجدِّد الحصول على ثمرة من ثمرات الأشجار مثلاً ، فلابد أن يقوم بذلك

بنفسه ، أى : لابد أن يصعد إلى أعلى الشجرة لكى يقطف الثمرة . أما المقلِّد فإنه يكون ناظراً إلى أسفل، ويكون عالةً على جهد الآخرين ، إنه يلتقط الثمرة من الأرض .

ورغم أن حياة مفكرنا الشيخ الإمام محمد عبده كانت قصيرة نسبياً ، إذ لم يزد عمره - على وجه التقريب - على سبعة وخمسين عاماً ، إلا أنه قدَّم خلال الفترة الزمنية التى عاشها الكثير من الأعمال الفكرية والدينية ، فى المؤلفات والفتاوى والشروح ، فى الدين والفلسفة وعلم الكلام والفقه ... إلى آخر هذه المجالات .

هذا بالإضافة إلى حياته العملية ، والتى كانت غاية فى الثراء والخصب والتنوُّع الخلاَّق ، وخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار المشكلات والعقبات التى واجهته منذ صدر شبابه حتى وفاته . لقد خاض معارك لا حصر لها ، ما أن ينتهى من مشكلة حتى يواجه مشكلة أخرى ، وكان خصومه وحُسَّاده أكثر بكثير من أنصاره وأتباعه ، وكأننا فى عالمنا العربى والإسلامى قد قمنا بإعلان الحرب على كل فكر تجديدى إصلاحى جاد ، بحيث إذا تحدثنا عن الإصلاح والتجديد فلابد أن يقول المقلدون والمتخلفون : العياذ بالله ، وكأن الإصلاح والمطالبة بأن يكون حاضرنا أفضل من ماضينا ، ويكون مستقبلنا أفضل من حاضرنا ، قد أصبح شرًّا مستطيراً . ولكن ماذا نفعل أمام الجهال ومتخلفى العقول ، ومن هم على درجة دنيا من الذكاء ونقص البصيرة ؟!

نعم.. لقد خاض الشيخ الإمام محمد عبده - طوال حياته - معارك لا حصر لها ، لأنه يريد لنا أن تكون حياتنا خالية من الضباب والظلام ، ونترك حياة الجفاف الفكرى ، وننتقل إلى الحركة والنشاط والحيوية . لقد أدرك أن القضاء على الجفاف لا يكون عن طريق محلول معالجة الجفاف ، بل عن طريق الحركة والنشاط والحيوية والدخول فى معارك لا حصر لها بروح نقدية ممتازة ، حتى نقتلع التقليد اقتلاعاً ، ونتمسك بكل ما يثرى حياتنا الفكرية التى نعيشها ، وإن كان أكثرهم لا يعلمون ، ونعنى بهم هؤلاء الذين تُعَدُّ أفكارهم التقليدية ظلاماً فى ظلام وجهلاً على جهل .

وقبل أن ندخل فى التفصيلات الخاصة بأفكاره وآرائه ، نشير فى البداية إلى بعض الخطوط العريضة فى حياته[1] ..

لقد ولد عام ١٨٤٩م والتحق بالجامع الأزهر عام ١٨٦٦م ، والتقى بجمال الدين الأفغانى الذى كان يدعو إلى الجامعة الإسلامية ، وحصل على شهادة العالمية من الأزهر عام ١٨٧٧م وقام بالتدريس فى العديد من الأماكن ، من بينها دار العلوم ومدرسة الألسن ، واتجه إلى النشاط الصحفى ، والذى أثمر عن مئات المقالات بالجرائد والمجلات العربية . واتُّهم بالتآمر مع رجال ثورة عرابى ، وحُكم عليه بالسجن ثم النفى حوالى ثلاث سنوات ، وزار فرنسا عام ١٨٨٤م والتقى بالأفغانى وعمل معه على إصدار أول صحيفة عربية تصدر فى أوربا ، ونعنى بها «العروة الوثقى» ، ورحل إلى إنجلترا ، ثم عاد إلى باريس، وسافر إلى بيروت وقام بإلقاء مجموعة من الدروس فى علم الكلام ، كما زار سوريا وقام بالتدريس فيها ، وأسَّس - بمعونة بعض الأشخاص - جمعية دينية سرية ، من أهدافها التقريب بين الأديان الثلاثة الكبرى : اليهودية والمسيحية والإسلام ، وعاد إلى مصرعام ١٨٨٨م ، وعُيِّنَ قاضياً بالمحاكم الشرعية ومستشاراً فى محكمة الاستئناف، ومفتياً للديار المصرية عام ١٨٨٩م، وعضواً بمجلس شورى القوانين عام ١٨٨٩م أيضاً . كما كان من المؤسسين الأوائل للجمعية الخيرية الإسلامية ، والتى ما زالت تواصل نشاطها الدينى والفكرى حتى الآن. وتوفى مفكرنا الكبير كما سنبين بعد ذلك بالتفصيل فى الحادى عشر من شهر يوليو عام ١٩٠٥م ، بعد حياة حافلة بالثراء الفكرى والدينى والنشاط الاجتماعى الإصلاحى .

نعم كانت حياته العلمية والعملية ، النظرية والعملية الإصلاحية ثرية ثراء بلا حدود ؛ لقد ألَّف وترجم الكثير (نرجو القارئ الكريم الرجوع إلى أسماء بعض مؤلفاته وترجماته فى قائمة مراجع الكتاب) واشتغل بالتدريس والوعظ

(١) يمكن الرجوع إلى المجلد التذكارى الذى صدر تحت إشرافنا عن المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٩٥م بعنوان «الشيخ محمد عبده مفكراً عربياً ورائداً للإصلاح الدينى والاجتماعى».

والإرشاد والإفتاء ، وهذا بالإضافة - كما سبق أن أشرنا - إلى المعارك الفكرية والدينية التى خاضها ، وما أكثرها ، وما أعمقها .

ونود أن نشير - فى البداية - إلى السيرة الأولى لحياته ، لأننا نعتقد من جانبنا أن النشأة الأولى لابد وأن تترك بصماتها وآثارها على حياة المفكر .. أىّ مفكر .

ومن المعروف أن الشيخ الإمام لم يكتب سيرة حياته كاملة ، بل اقتصر على الحديث عن جزء يسير من حياته ، والذى يتعلق بأهله وبيته ، أما أوسع المصادر فى إكمال هذه السيرة بكل تفاصيلها ومراحلها فإننا نجدها فى أوسع المراجع ، ونعنى به المجلدات الثلاثة التى أصدرها رشيد رضا تحت عنوان « تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده » والذى زادت صفحاته على ألفى صفحة .

ويقدم رشيد رضا لترجمة الشيخ الإمام لحياته ، وكيف كان الإمام متردداً فى كتابة سيرته الذاتية ، حتى تم إقناعه ، فكتب جزءاً يسيراً منها ، كما كتب ابن سينا فيلسوف المشرق العربى جزءاً يسيراً من سيرة حياته .

يقول رشيد رضا فى الجزء الأول من تاريخ الإمام محمد عبده[1] ، تحت عنوان « بدء الشعور بالحاجة إليها (أى : السيرة) ومطالبته (أى : محمد عبده) بالشروع فى تدوينها : ماكان الأستاذ الإمام يفكر فى أن تكون له ترجمة تُكتب أو سيرة تُدوَّن ، لأنه كان يستصغر عظائم أعماله لتَوجُّه همته إلى ما هو أعظم منها. ولا أعظم منها إلا غاياتها وثمراتها . وأما علمه وحكمته وأخلاقه وشمائله فكانت محجوبة عنه بتواضعه ، فلا يخطر فى باله ما فى إظهارها للناس من المثل الكامل والأسوة الحسنة . فبينما هو غافل عن هذه ، ومستصغر لتلك ، إذا به يُطالَب من بعض أهل العلم والفضل بالتفضُّل عليه بترجمته . ثم إذا هو بمعجب به يقترح عليه أن يكتب بيده سيرته . وإذا بمقترح جاد يلحف فى السؤال ويكرر الاقتراح ، فهل كان هذا المقترح وذلك الطالب من تلاميذه

(١) مطبعة المنار فى مصر عام ١٩٣١م ، وراجع أيضاً الكتاب الذى صدَّرنا له بعنوان : الشيخ محمد عبده مفكراً عربياً . بالإضافة إلى كتاب د . عثمان أمين : رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده . وكتاب الشيخ مصطفى عبد الرازق عن محمد عبده - فى صفحات متفرقة - دار الكتب١٩٩٧ م .

ومريديه وهم أَوْلَى الناس بعرفان فضائله ؟ أم من صنائع أياديه ، فكان من حقه الشكر عليها تعريف الناس بفواضله ؟ أم كانا من أُولى النزعة الوطنية والعصبية القومية ، فأحبَّا أن يباهيا به الأوطان ، ويفاخرا به الأقوام ؟ لا هذا ولا ذاك . جاء فى الأمثال : « مغنية الحىّ لا تُطرب » والعجيب إذا أُلف لا يعود يُعجب ، ولذلك يكون إجلال الغرباء للرجل العظيم أبلغ من إجلال أهله وقومه ، وقد كان للأستاذ الإمام نصيب عظيم من إكبار الغرباء له لفضائله ومناقبه ، على حين كان أكبر تحويم قومه عليه لجاهه ومنصبه ، لا لعلمه وحكمته ، وأكثر اغتباط أصحابه الكثيرين به لعلو مروءته ونجدته لا لأجل إصلاحه وجهاده ، فكان لأكثر الفريقين حظ شخصى من تعظيمه.

وأما إعجاب الغرباء به فالباعث عليه فضائله الذاتية ، لا فواضله العرضية. وقد كان الذى طالبه بكتابة سيرته وتاريخه رجلاً من فضلاء الأجانب لا من متَّبعى مِلَّته ولا من أهل وطنه . والذى طالبه بتفضُّله عليه بخلاصة من سيرته ليزداد علماً بمناقبه ، وتأسِّياً به فى عمله ، رجلاً كريماً يشاركه فى الدين دون الوطن ، فكان هذان الاقتراحان سبباً لعلمنا بما لم نكن لنعلمه لولاهما .

أما هذا المقترح للخلاصة فكان سبباً لحمل الأستاذ نفسه على كتابة مذكرة فى خلاصة سيرته أعطانيها لأزيد فيها ما علمته منه بالمشافهة والمشاهدة ، وأبيِّضها ليرسلها إليه ، ففعلت وبقى عندى الأصل ، وقد ازددت به علماً . وكان مادة لى فى هذا التاريخ فيما سبق صحبتى لصاحبه من الزمن . وأما المقترح لتدوين كتاب حافل فى سيرته التفصيلية فقد كان بإلحاحه وما شعر به الإمام من إخلاصه ، سبباً لشروعه فيه ، ولكن كثرة أعماله وضيق أوقاته عن الاتساع لها قضت بأن يسترق له من خلس الراحة سويعات من كل أسبوع أو شهر ، وكان كل ما أمكنه أن يكتبه المقدمة وبعض الفصل الأول الذى موضوعه أهله وبيته .

ويقول الشيخ محمد عبده فى السطور الأولى من كتابته لسيرته : فما أنا ممن

تُكتب سيرته ، ولا ممن تُترك للأجيال طريقته ، فإنى لم آتِ لأمتى عملاً يُذكر ، ولم يكن لى فيها إلى اليوم أثر يُؤثر ، حتى أكوننَّ لأحد منها قدوة ، أو يكون لأحد فىَّ أسوة ... ولما تكرر الطلب ، رأيت أن الإضراب عن الإجابة إغراق فى الخمول، وتقصير فى احترام رأى لم يَشُبْهُ رياء ، ولم يحمل عليه إلا قوة الظن بالفائدة فى المطلوب ، لهذا رأيت أن أكتب ما لاقيت ، وأثبت ما صادفت من لَدُنْ عقلت ، منبهاً على ما فىَّ من معايب ، وعلى إحسان الله إلىَّ فى بعض المزايا، وعلى علل الحوادث التى مررت بها أو مرت بى فى أطوار حياتى . غير أننى أبدأ بكلام قليل فيما يتعلق بما فى بيتى وهو ما لا أعرفه إلا بالسماع من أهله كما لا يخفى .

أول ما عقلت من أنا ومن والدى ومن والدتى ومن هم أقاربى وجيران بيتى، عرفت أنى ابن « عبده خير الله » من سكان قرية « محلَّة نصر » بمركز «شبراخيت» من « مديرية البحيرة » ، ووقر فى نفسى احترام والدى ، ونظرت إليه فرأيته أجلَّ الناس فى عينى وسكن من هيبته فى قلبى ما لا أجده لأحد من الناس اليوم عندى ، أما عوامل هذا الاحترام وذلك الإجلال فأتذكر منها قلة الكلام أمامى ووقار كان فى الحركات والأعمال والهيئة ، والتنزُّه عن مخالطة الصغار من الناس ، ومشاهدتى أهل بلده يحترمونه ويبالغون فى توقيرهم إياه ، وانفراده بالطعام دون والدتى وإخوتى ، فإن ذلك كان آية العِظَم عندنا ، فإنه ما كان يؤاكل نساءه وأولاده فى تلك الأوقات إلا الفقراء وأهل الطبقة السفلى من أهل القرية .

ثم وجدت والدى يقرى الضيف ويؤوى الغريب ويفتخر بإكرام النزيل ، وذلك كان يزيد منزلته من نفسى علوًّا ، وأنا لا أفهم من هذا إلا أنه شىء يفتخر به بدون أن أعقل له علة ، وبالجملة كنت أعتقد أن والدى أعظم رجل فى القرية، وكل من فيها دونه ، وهو بذلك كان أعظم رجل فى الدنيا عندى ، ولم تكن أوسع من قرية «محلَّة نصر» ، وكان يمدنى فى اعتقادى هذا رؤيتى لبعض

الحكام كناظر القسم (مأمور المركز) وحاكم الخط (معاون المركز) ينزلون عندنا ولا ينزلون فى بيت العمدة مع أنه كان أوسع رزقاً من والدى وأكثر دُوراً وأرضين ، وفشا فىَّ بذلك الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لا يتعلقان بالثروة ووفرة المال . هذا وكنت أعقل من صغرى ما كان عليه والدى من ثباته فى عزيمته ، وشدته فى المعاملة ، وقسوته على من يعاديه ، وقد أخذت عنه ما عدا القسوة ، وأحمد الله ولا أحصى ثناء عليه .

أما والدتى فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة والدى ، وكانت ترحم المساكين ، وتعطف على الضعفاء ، وتعد ذلك مجداً ، وطاعة لله وحمداً ، ولم أزل أجد أثر ما وعيت من ذلك فى نفسى إلى اليوم.

عرفت لى عمًّا يسمَّى « بهنسى » ، ولا أعرف من أحواله شيئاً لأنه مات قبل أن أحفظ عنه ، وكان لوالدى ابن عم يسمَّى «إبراهيم» ، ولم يكن له بين الناس ما يُذكر به ، وكان يساكننا فى بيت واحد ، ولا يزال ولده يسكن فى قسم من منزلنا إلى اليوم ، ولنا أقارب كثيرون يتصلون بنا من جهة النساء وبيوتهم من خير البيوت فى القرية .

هذا ما عرفته من حاضر بيتى فى أول أمرى وما طرأ عليه سيأتى ذكره فى سيرتى ، أما ماضيه فإنما أذكره حديثاً عن أبى ورواية عن بعض مَنْ عرف شيئاً ممن أثق به من ذوى قرابتى وغيرهم . جدى لأبى كان يسمَّى «حسن خير الله» ، توفى عن أبى وعمى بالهواء الأصفر الذى فتك بسكان القطر المصرى فى أواسط القرن الماضى ، ويقال إنه كان له قبل موته من بنى عمه وذوى عصمته نحو اثنى عشر رجلاً ، وشى بهم واشٍ من بيت آخر جاء البلدة وسكن فيها وحسد أهل الحسب من سكانها ، فسعى بأهل هذا البيت(بيت خير الله) عند الحكام بحجة أنهم ممن يحمل السلاح ويقف فى وجوه الحكام وأعوانهم عند تنفيذ المظالم، فأُخذوا جميعاً وزُجُّوا فى السجون واحداً بعد واحد ، ومن دخل منهم السجن لا يخرج إلا ميتاً ، وكان جدى «حسن» شيخاً بالبلدة وهو الذى بقى من البيت مع ابن أخيه «إبراهيم» .

بعد وفاته طالت يد ذلك الكاشح بمساعدة أعوان الحكومة إلى سلب ما كان فى البيت من تراث ، حيث لم تكن قوة تدافعه ، فإنه لم يكن بقى إلا والدى فى سن الرابعة عشرة وعمى فى سن السادسة عشرة وإبراهيم فى سن الثامنة عشرة والنساء ، فأخذ جميع ما كان فى البيت حتى الأبواب وبعض أخشاب السقوف. فهاجر والدى وعمى ومن معهما من البلدة ، ولجأوا إلى خال والدى «الحاج محمد خضر» ، وكان عمدة فى قرية صغيرة تُعرف بـ «كنيسة أورين» من مراكز «شبراخيت» ، ولكنه لم يستطع إيواءهم عنده خوفَ الاضطهاد ، لأن هذه المصائب كلها لم تكن قد استلَّت أحقاد الظلمة من الحكام والوشاة ، فأخذهم خفية وسار بهم إلى «مديرية الغربية» عند أحد أقاربه فى قرية يقال لها «منية طوخ» بمركز «السنطة» ، ثم انتقلوا إلى قرية بجانبها تسمى «شتراء» ، وكان معهم من النقود ما يسمح لهم باستئجار أطيان يعملون فى زراعتها إما بأنفسهم أو بشركاء يعملون بأيديهم ويقتسمون الريع معهم . واشتهر والدى بالفتوة والبراعة فى الصيد بالسلاح ، وأحبه لذلك مصطفى أفندى المنشاوى ومحمد أخوه ، وكانا موظفين فى دائرة المرحوم إسماعيل باشا الخديوى : الأول فى وظيفة مفتش زراعة ، والثانى بوظيفة ناظر . وطابت له صحبتهما ، وعَدُّوه كأنه واحد من أهلهما ، ودام ذلك مدة سنتين .

ولما اشتد الظلم على أهل قرية «محلَّة نصر» ، وضاقت بهم السبل ، كما كان ذلك الواشى يسومهم الخسف والذل ، أخذوا يتسللون بيتاً بعد بيت يهجرون القرية ويذهبون ليقيموا فى جوار من سبقهم من أهلى ، فأحس الشقى بإشراف القرية على الخراب ، وفى ذلك انتقاص منافعه وخسار كبير فى مصالحه ، فجدَّد الوشاية بوالدى ومن معه، ورفع شكوى إلى مدير البحيرة، وكان فى شبراخيت، يذكر فيها أن والدى مأوى لمن فروا بأسلحتهم من القرية ، وكان قد صدر أمر المرحوم عباس الأول بتجريد الأهالى من السلاح وحظر حمله عليهم ، فكتب مدير البحيرة بذلك إلى مدير الغربية ، واتهم مع ذلك مصطفى أفندى المنشاوى

بإيوائه بعض الفارين من العسكرية ، فأُخذ الجميع على غِرَّة وقُبض عليهم فى بيوتهم ، وسيقوا إلى مديرية الغربية . أما مصطفى أفندى المنشاوى فأُرسل إلى ليمان الإسكندرية . وأما والدى ومن معه فأرسلوا إلى مديرية البحيرة ليحبسوا هناك إلى أن يصدر الأمر فى شأنهم ، ولم يزالوا فى السجن إلى أن توفى عباس باشا، فأُفرج عنهم وعن غيرهم ، وبعد ذلك عاد والدى إلى مسقط رأسه فى أول ولاية المرحوم سعيد باشا ، ولم يجد شيئاً مما كان يملكه أسلافه إلا جدران البيت مهدمة .

تقدَّم أنه طالت إقامته فى مديرية الغربية ، ويقال إن مدتها بلغت نحو خمس عشرة سنة ، وفى أثنائها عرف كثيراً من سكان البلاد المجاورة لشتراء ، وعرف فيمن عرف بيت والدتى ، وهو بيت كبير فى بلدة تسمى «حصة شبشير» يُعرف ببيت عثمان ، وكان كبيره إذ ذاك جدى «إبراهيم عثمان الكبير» ، فتزوج والدتى وأخذها إلى شتراء ، وفيها ولدت فى أواخر سنة خمس وستين بعد المائتين والألف من الهجرة ، ولم يولد له منها غيرى إلا بنتان إحداهما تسمى «زمزم» ، وهى بكره وتوفيت قبل ولادتى ، والأخرى تسمى «مريم» ، وهى لم تمت حتى تزوجت وأنا فى آخر سنىّ طلب العلم .

كنت أسمع المزَّاحين من أهل بلدتنا يلقِّبون بيتنا ببيت التركمان ، فسألت والدى عن ذلك فأخبرنى أن نسبنا ينتهى إلى جد تركمانى جاء من بلاد التركمان فى جماعة من أهله وسكنوا فى الخيام بمديرية البحيرة مدة من الزمن ، ثم اتفق أن اتصل بهم شيخ يسمى «عبد الملك» ، لا يعرف نسبه ولكنه كان معتقداً له كرامات تُنسب إليه واتخذ له خلوة فى المحل الذى أُسِّست فيه قرية «محلَّة نصر»، فلما توفى رأى جدنا ومن كان من أهل بيت الشيخ وبيت آخر يسمى «بيت الغرنوانى» أن يبنوا له فيه قبة ثم يقيموا لهم بيوتاً من البناء حول تلك القبة ويسكنوها ، ثم انضم إليهم بيوت كثيرة تكوَّن من مجموعها قرية «محلَّة نصر»، وذلك من زمن مديد لا يعرف ابتداؤه ، ولا تزال قبة الشيخ وبيت أقربائه إلى اليوم ، أما تسميتها بمحلَّة نصر فذلك لأن مزارع البلدة كانت أُعطيت إقطاعاً

لشخص يسمى نصراً فسُمِّيت باسمه ، وذلك فى زمن لا نعرفه أيضاً.

وقد أخبرنى المرحوم «على باشا مبارك» أنه اطلع على رحلة لعبد اللطيف البغدادى الشهير تُعرف بالرحلة الكبرى، ورأى فيها اسم محلَّتى نصر ومسروق، وأنه نزل ضيفاً فى بيت خير الله التركمانى ، وقال إن البيوت الكبيرة كانت ثلاثة : بيت الشيخ وبيت خيرالله وبيت الغرنوانى .

أما بيت والدتى فيقال إنه عربى قرشى ، وأنه يتصل فى النسب بعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولكن ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن إقامة الدليل عليها .

وهنا موضع الكلام على سبب ضياع الأنساب فى الإسلام ، وكيف وصل الأمر بالمسلمين إلى أن لا يعرف الواحد منهم من آبائه أكثر من ثلاثة ، ومنهم من لا يعرف غير والده .

هذا ما يقوله الشيخ محمد عبده فى الصفحات القليلة التى كتبها مؤرخاً لحياته فى الأسرة . وبعد ذلك تعلَّم القراءة والكتابة فى منزل والده ، وحفظ القرآن الكريم فى مدة سنتين كما يقول. وبعد ذلك ذهب إلى طنطا لتجويد القرآن فى المسجد الأحمدى ، وكان ذلك فى سنة ١٢٧٩ هـ ، ثم بدأ يتلقى شرح الكفراوى على الأجرومية فى المسجد الأحمدى فى طنطا .

ويقول الشيخ محمد عبده إنه قضى سنة ونصفاً لا يفهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم ، وكيف أدركه اليأس من النجاح حتى أنه هرب واختفى عند أخواله مدة ثلاثة شهور إلى أن أكرهه شقيقه على طلب العلم ، وإن كان قد فشل فى إكراهه .

وبعد فترة ذهب إلى الأزهر ، وكان لديه بوجه عام نفور من المواد التى يتم تدريسها بالأزهر، وكان قبل حصوله على شهادة العالمية قد اشتغل بميدان التدريس والصحافة وكتب العديد من المقالات وصَاحَبَ جمال الدين الأفغانى.

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه عن محمد عبده[1] : لابد أن يكون

(١) ص ٨٣ ، ٨٤ - مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٩٧م .

صدى تلك المقالات وصل إلى أسماع الجامدين من الشيوخ ، والتقى فيها بحديث مصاحبة كاتبها للسيد جمال الدين الأفغانى ، واشتغاله بالفلسفة ، وترجيحه لبعض مذاهب المعتزلة ، وعزوفه عن التقليد ، ونقده لمؤلفات السابقين ، ودعوته إلى الاشتغال بالعلوم الحديثة ، وتحبيذه لعلوم الفرنجة ، وإطالته لشعره . دخل الشيخ محمد عبده إلى مجلس الامتحان وكل ذلك ينتظره فى صدور أعضائه ما عدا الرجل المنصف المرحوم الشيخ محمد المهدى العباسى شيخ الجامع الأزهر فى ذلك العهد ورئيس لجنة الامتحانات . ولولا قوة الشيخ محمد عبده فى علمه وفى نفسه قوة باهرة ، وعزوف الشيخ المهدى عن الظلم لحكمَ مجلس الامتحان المؤلَّف من كبار الشيوخ بأن ذلك المجاور المضطهد لايستحق نجاحاً .

أما عن الامتحان ، فإننا نجد الشيخ محمد عبده يحدثنا عنه قائلاً :عرضت نفسى على مجلس الامتحانات فى يوم ١٣ جمادى سنة ١٢٥٤ هـ وابتليت أشد الابتلاء لتعصب الأكثرية من أعضائه مع المرحوم الشيخ عليش ، وكان يعادينى على الغيب اتباعاً لآراء من لا رشد عندهم من بلداء الطلبة ، وكانوا قد أجمعوا أمرهم على أن لا يمنحونى درجةً ما فى العلم ، وجرت أمور قبل الامتحان يطول شرحها ، ولكن كان أمر الله أغلَب فخرجت من هذا الامتحان بالدرجة الثانية ، وصرت مدرساً من مدرسى الجامع الأزهر ، وأخذت أقرأ العلوم الكلامية والمنطقية .

هذا ما يقوله الشيخ محمد عبده عن يوم امتحانه بالأزهر . ولا شك فى أن ما حدث له يوم الامتحان وقبل الامتحان قد أثر فى نفسه تأثيراً سيئاً بالنسبة لموقفه من الأزهر ، فكم اتهم بعض شيوخ الأزهر بالجمود والتخلف ، وكم شن هجومه على العديد من العلوم الأزهرية ، أى:العلوم التى كانت تُدرَّس بالأزهر، ومنهج تدريسها . بل إن موقفه من الأزهر قد بدأ فى سن مبكرة نسبياً، وخاصةً أنه حصل على شهادة العالمية فى الثامنة والعشرين من عمره .

وقد حاول محمد عبده إصلاح الأزهر ، لأن صلاح أهل الأزهر صلاح للبلاد كلها وأهلها ، فإننا - كما يقول - : لا نسمع إلا مقالهم ، ولا نرمق إلا أحوالهم، بل لا نسمع إلا بآذانهم ، ولا نبصر إلا بأبصارهم ، ولا نذوق إلا بذائقتهم ، ولا نتكلم إلا بألسنتهم . كيف لا وهم الأرواح ونحن الأشباح ، وهم النسمات ونحن الأغصان ، حيث مالوا مِلْنا وما مَلُّوا مَلَلْنا .

هذا ما قاله - كما ذكر الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه عن الشيخ محمد عبده [1] - .

ونعتقد من جانبنا أن هذا الاعتقاد من جانب الشيخ محمد عبده يدلنا على أنه كان يريد ما نسميه بالثورة من الداخل ، وليس الثورة من الخارج ؛ فللأزهر تأثيره فى تشكيل الحياة فى أكثر مجالاتها بمصر ، ومن هنا لم يكن هناك مفر من الدعوة إلى إصلاحه ، أى : الإصلاح من الداخل ، وهذا الإصلاح لا يتم بالدرجة الأولى إلا بتعديل مناهجه تعديلاً جذرياً ، إذ لا يعقل أن تكون المناهج تسير فى فلك الحواشى والهوامش والشروح وشرح الشروح ، إلى آخر هذه الأساليب العقيمة المجدبة ، فى الوقت الذى بدأت فيه أوربا بالتقدم نحو الأمام فزادت ثرواتها وكثرت قوتها فى سائر البلدان .

لابد - إذن - كما يقول الشيخ محمد عبده من الارتقاء بمعارفنا والانفتاح على العلوم العصرية فى سائر بلدان العالم .

أخذ الشيخ محمد عبده فى تدريس مجموعة من الكتب للطلاب رغم نفور الشيخ عليش وأشياعه منها. ومن هذه الكتب كتاب مسكويه[2] «تهذيب الأخلاق» الذى كان قد ثم إلغاء تدريسه بالمعاهد الدينية ، واستبدل به كتاب «الذريعة إلى مكارم الشريعة » للراغب الأصفهانى .

وقد عمل الشيخ محمد عبده فترات من حياته بمدرسة دار العلوم ومدرسة

(١) المرجع السابق ، ص ٨٥ .

(٢) فى كتاب مصطفى عبد الرازق وكتاب د . عثمان أمين عن الشيخ محمد عبده ، نجدهما يذكران ابن مسكويه . وهذا خطأ ، والصحيح « مسكويه » وليس ابن مسكويه .

الإدارة ومدرسة الألسن الخديوية ومدرسة الحقوق . ويبدو أنه كان يهتم بعلم الاجتماع والعمران ، إذ كان يقرأ فى مدرسة دار العلوم مقدمة ابن خلدون ، ونحن نعلم مدى اهتمام ابن خلدون بالاجتماع والعمران من خلال مقدمته الشهيرة .

ولابد أن نشير إلى صلة الشيخ محمد عبده بجمال الدين الأفغانى ، والذى حضر إلى مصر عام ١٢٨٨ هـ ولازمه فترة طويلة .

فإذا رجعنا إلى رشيد رضا فى تاريخ الإمام محمد عبده ، وجدناه يقول : أخبرنى رحمه الله تعالى أن الذى أخبره بقدوم السيد جمال الدين هو أحد المجاورين فى رواق الشوام ، قال له إنه جاء مصر عالم أفغانى عظيم وهو يقيم فى خان الخليلى ، فَسُرَّ بذلك وأخبر الشيخ حسناً ودعاه إلى زيارته معه وألفياه يتعشَّى فدعاهما إلى الأكل معه فاعتذرا فطفق يسألهما عن بعض آيات القرآن وما قاله المفسرون والصوفية فيها ، ثم يفسرها لهم ، فكان هذا مما ملأ قلب فقيدنا به عجباً وشغفه حبًّا ، لأن التصوف والتفسير هما قرة عينه ، أو كما قال : مفتاح سعادته . وأخبرنى رحمه الله تعالى أنه قرأ على السيد (جمال الدين الأفغانى) كتاب الزوراء للدوانى فى التصوف وشرح القطب على الشمسية والمطالع وسلم العلوم من كتب المنطق ، والهداية والإشارات وحكمة العين وحكمة الإشراق من الفلسفة ، وعقائد الجلال الدوانى والتوضيح مع التلويح فى الأصول ، والجغمينى فى الهيئة القديمة وكتاباً آخر فى الهيئة الجديدة .

ثم إن السيد أرشده كغيره من تلاميذه إلى الإنشاء وكتابة المقالات الأدبية والاجتماعية والسياسية ومرَّنهم على الخطابة .

ثم إن مجالس السيد فى ناديه وسامره كانت كلها مجالس علم وحكمة وأدب وسياسة ، وقلَّما كان يفوت فقيدنا شىء منها ، إذ كان يلازمه ملازمة ظله .

وقبل أن نواصل حديثنا عن علاقة الشيخ محمد عبده بجمال الدين الأفغانى، يحسن أن نشير إلى أن من أساتذة الشيخ محمد عبده - كما يذكر الشيخ مصطفى

عبد الرازق[1] - الشيخ حسن الطويل والشيخ البسيونى ، كما حضر دروس بعض ذوى الاتجاه المحافظ فى الأزهر كالشيخ عليش والشيخ الرفاعى والشيخ الجيزاوى والشيخ البحراوى والشيخ الرافعى والشيخ الطرابلسى. ودرس أمهات كتب المالكية ، وحضر دروس مذهب أبى حنيفة ، وكان ذلك زمن الشيخ المهدى أول شيخ حنفى للأزهر ، كما درس التصوف .

وقد كتب الشيخ محمد عبده فى تلك الفترة رسالة الواردات ، والرسالة ذات اتجاه صوفى ، وإذا رجعنا إلى تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا وجدنا بعض التفصيلات حول الكتب التى كان الشيخ محمد عبده يقوم بتدريسها للمجاورين ، كتب المنطق والعقائد ، ومن بينها شرح العقائدالنسفية للنسفى، وكيف كانت بعض الكتب تواجه معارضة شديدة من جانب المحافظين وأصحاب الجمود ، وخاصة الشيخ عليش ، الذى أشرنا إليه منذ قليل ، فإذا رجعنا إلى ما كتبه رشيد رضا فى سيرة محمد عبده وجدناه يقول : وحسده أناس منهم « أى : من أذكياء الطلبة » فأحفظوا عليه قلب الشيخ عليش ، فكان ما كان من حادثته معه إذ ذهب ابن للشيخ عليش مع طالب آخر فقالوا إن فلاناً يقرأ شرح العقائد النسفية ، وقد رجَّح فى درسه أمس مذهب المعتزلة على مذهب الأشعرية . وكان الشيخ عليش رحمه الله أذناً يصدِّق كل ما يسمع، وكان شديد الغيرة فى الدين ، حديد المزاج ، سريع الغضب ، فكبر عليه أن يقرأ أحد الطلاب مثل ذلك الكتاب الذى لم يكن الشيوخ الكبار يتسامون لقراءته ، فأرسل إلى الفقيد ، فجاءه وهو يقرأ الدرس فى المسجد الحسينى .

قال الشيخ عليش : بلغنى أنك تقرأ شرح العقائد النسفية درساً . قال : نعم. قال الشيخ عليش : وبلغنى أنك رجَّحت مذهب المعتزلة على مذهب الأشعرية. قال : إذا كنت أترك تقليد الأشعرى ، فلماذا أقلِّد المعتزلى ، إذن : أترك تقليد الجميع وآخذ بالدليل . قال الشيخ عليش : أخبرنى الثقة بذلك . قال : هلمَّ

(١) كتاب « محمد عبده » للشيخ مصطفى عبد الرازق ، ص ٤٨ وما بعدها .

الثقة الذى يشهد بذلك فليميِّز أمامنا بين المذهبين ، وليخبرنا أيهما رجَّحت . قال الشيخ عليش : أومثلك يفهم العقائد ؟ قال : الكتاب حاضر وأنا حاضر فسلنى إنْ شئت .

فكبر على الطلبة الحاضرين مثل هذه المراجعة من طالب للشيخ عليش المهيب ، وقال بعضهم : إن هذا يرسل شَعره ويجمعه تحت عمامته ، وأخذ عمامته عن رأسه ، ولغط الحاضرون ، فتركهم الفقيد رحمه اللَّه وذهب حاسراً عن رأسه، فقال أناس إن الشيخ عليشاً ضربه ، وقال آخرون إنه منعه من الدرس . وكثرت الإشاعات والأقوال والرؤى والأحلام فيه وفى السيد جمال الدين . والصواب أن هذا كل ما حصل وأن الفقيد لم يمتنع من قراءة الدرس ، ولكنه كان يضع بجانبه عصاً ، وقال : إذا جاء الشيخ بعكازه فله هذه العصا . وكان من الشجاعة على ما يعهده عارفوه ... إلخ . ولو صحت الرواية لكان الشيخ عليش أحلم أهل زمانه ، لأنه احتمل من الطالب المشكو مناقشات لايحتملها فى زماننا من هم فى مرتبة الشيخ عليش ممن هم فى منزلة الشيخ محمد عبده حينذاك ، ولكان الشيخ عليش أحلم من طلاب الأزهر الذين غضبوا له وكبرت عليهم مراجعة أخيهم لشيخهم .

والمعروف من حال الشيخ عليش رحمه الله يبعد أن يصبر مثل هذا الصبر ، وقد روى لنا أنه سمع مرة أن الشيخ الطويل يرد فى درسه على بعض كبار المؤلفين ، فذهب إلى حلقة الدرس وانتظره هناك ، فلما جاء الأستاذ واستوى على كرسيه لمح بين يديه الشيخ المغربى المالكى ، فجلس خاشعاً صامتاً .

قال الشيخ عليش : اقرأ يا خبيث .

أجاب الشيخ الطويل : ليس من الأدب أن أقرأ وشيخى بين يدى .

قال الشيخ عليش : اقرأ فواللهِ ما تقول إلا كذباً .

قال الشيخ الطويل : إنى أقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

هنا تفجَّر الشيخ غضباً وانصرف مغاضباً يصيح بالشتائم واللعنات ، وشرع الشيخ حسن الطويل رحمه الله فى قراءة درسه .

والشيخ عليش الذى ذهب إلى عالم مدرس ليسبَّه بين طلابه لا يبعد عليه أن يضرب طالباً استدعاه إليه ليناقشه الحساب فى وشاية من الوشايات فأطال الجدل .

وما أرى غضاضة على الشيخ محمد عبده أن يُتهم بالفلسفة وهو طالب فيضربه الشيخ عليش ويستتيبه ثم يعود إلى دروسه .

والشيخ محمد عبده أكبرعندنا أدباً ، وأكبر حزماً من أن يضع إلى جانبه فى الدرس عصاً يعدها للشيخ عليش .

وإذا لاحظ المؤرخ ظروف ذلك الزمن وأحوال أهله خصوصاً فى الأزهر لم يرجِّح إلا رأينا، وقد أدركنا فى الأزهر زمناً كان فيه بعض كبار الشيوخ ذوى الزعامة يضرب من دونه من العلماء المدرسين ، ويجرى وراءهم بعصاه لتهم كهذه أو دون هذه .

كان الشيخ محمد عبده – إذن – فى تلك الفترة يجمع بين التدريس والتأليف وحضوره مجالس جمال الدين الأفغانى ، وقد ألَّف فى فترة مبكرة حاشيته على شرح الدوانى على العقائد العضدية لعضد الدين الإيجى الأشعرى ، والذى يعد واحداً من الأشاعرة الذين عاشوا فى فترة متأخرة نسبياً عن ظهور الأشعرى مؤسس فرقة الأشاعرة .

وهذه الحاشية التى كتبها محمد عبده تدلنا على معرفته الواسعة بالمذاهب الفلسفية والمذاهب الكلامية عند مفكرى الإسلام . وفى حديثه عن مشكلة حدوث العالم وقِدَم العالم ، نجده لا يلجأ إلى تكفير القول بقِدَم العالم على النحو الذى وجدناه عند الغزالى المتوفى فى عام ٥٠٥ هـ/ ١١١١م بل نجد عند محمد عبده رؤية أوسع . إنه يقول بالخطأ وليس بالتكفير ، وهى نظرة أفضل إذا قارنا بين موقف الغزالى وموقف الشيخ محمد عبده .

يقول الشيخ محمد عبده : واعلم أنى وإن كنت قد برهنت على حدوث العالم، وحققت الحق فيه على حسب ما أدى إليه فكرى ووقفنى عليه نظرى ، فلا أقول بأن القائلين بالقِدَم قد كفروا بمذهبهم هذا وأنكروا به ضروريًّا من الدين القويم، وإنما أقول إنهم قد أخطأوا فى نظرهم ولم يسدِّدوا مقدمات أفكارهم . ومن المعلوم أن مَنْ سلك طريق الاجتهاد ولم يعوِّل على التقليد فى الاعتقاد ولم تجب عصمته ، فهو معرَّض للخطأ ، ولكن خطؤه عند الله واقع موقع القبول حيث كانت غايته من سيره ومقصده من تمحيص نظره أن يصل إلى الحق ويدرك مستقر اليقين .

وإذا كان الشيخ محمد عبده - كما أشرنا - لم يذهب إلى التكفير كالغزالى وابن تيمية ، إلا أن هذا لا يعد دليلاً على تأثره البالغ بابن رشد عميد الفلسفة العقلية فى بلداننا العربية ، إذ لابد أن نضع فى الاعتبار أن حدود التأويل عند ابن رشد أوسع بكثير مما نجده عند الشيخ الإمام محمد عبده ، وقد كان هذا متوقعاً لأن ابن رشد يتحرك فى إطار البرهان ، والشيخ محمد عبده يتحرك من منطلقات جدلية ، والجدل أقل مرتبةً من البرهان ، هذا بالإضافة إلى أن الشيخ محمد عبده - كما أشرنا - كان متأثراً بالمعتزلة والأشاعرة والماتريدية ، وكلها فرق كلامية جدلية غير برهانية . صحيح أننا نجد فى بعض مواضع - كما سنشير - نقاط التقاء بين ابن رشد من جهة ، والشيخ محمد عبده من جهة أخرى ، إلا أن نقاط اللقاء بينهما أقل من نقاط تأثره بالفرق الكلامية كما قلنا .

هذا بالإضافة إلى أن ابن رشد على وجه الخصوص ، وبالإضافة إلى اختلاف منهجه البرهانى عن المنهج الجدلى ، كان عدواً لدوداً للأشاعرة[1] .

(١)راجع ما كتبناه عن ابن رشد وفلسفته فى بعض كتبنا عن هذا الفيلسوف ، ومن بينها :النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد ، والمنهج النقدى فى فلسفة ابن رشد ، والفيلسوف ابن رشد ومستقبل الثقافة العربية ، وابن رشد فيلسوفاً عربياً بروح غربية . بالإضافة إلى المجلد التذكارى الذى صدر عن المجلس الأعلى للثقافة منذ سنوات ، تصدير وإشراف عاطف العراقى .

من هنا كان التأويل عند ابن رشد أوسع نطاقاً بكثير من التأويل عند الشيخ محمد عبده.

يقول ابن رشد فى كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال»: إذا كانت هذه الشرائع حقاً وداعية إلى النظر المؤدى إلى معرفة الحق، فإنا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدى النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له ، وإذا كان هذا هكذا فإن النظر البرهانى إلى نحو ما من المعرفة بموجود ما فلا يخلو ذلك الموجود أن يكون قد سكت عنه الشرع أو عرَّف به ، فإن كان مما سكت عنه فلا تعارض هناك ، وهو بمنزلة ما سكت عنه من الأحكام فاستنبطه الفقيه بالقياس الشرعى ، وإن كانت الشريعة نطقت به فلا يخلو ظاهر النطق أن يكون موافقاً لما أدى إليه البرهان فيه أو مخالفاً ، فإن كان موافقاً فلا قول هناك ، وإن كان مخالفاً طُلب هناك تأويله .

وأيضا قوله : ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربى .

ومن هذا المنطلق فإننا لا نتفق بالضرورة مع ما ذهب إليه الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه عن الشيخ محمد عبده ، حين قال بوجود تأثر من جانب الشيخ محمد عبده بفيلسوفنا ابن رشد . صحيح أن الشيخ مصطفى عبد الرازق قد ذهب إلى أن ابن رشد كان أكبر جراءة وأصرح رأياً[1] . لكن المشكلة فيما يبدو لنا تكمن فى وجود خلاف جوهرى بين طبيعة ومنهج التأويل عند كل من ابن رشد والشيخ محمد عبده .

وكان الشيخ محمد عبده لا يكل لا يمل ، فقد كتب فى سن مبكرة العديد من المقالات بجريدة الأهرام منذ عام ١٢٩٣ هـ ، وهذه المقالات تكشف عن رؤية من جانبه لكيفية الإصلاح وعدم الوقوف عند التقليد والجمود ، ويمكن

(١) كتاب مصطفى عبد الرازق عن الشيخ محمد عبده ، ص٧٢ .

الوقوف على هذه المقالات إذا رجعنا إلى تاريخ الإمام محمد عبده الذى ألفه رشيد رضا ، خاصة فى الجزء الثانى ، سواء فى جريدة الأهرام أو فى صحف أخرى ، وهى بوجه عام مقالات فكرية وإصلاحية واجتماعية ، تتعلق تعلقاً كبيراً بأحوال مجتمعنا والرغبة الشديدة فى إصلاحه حتى يصبح الحال غير الحال ، وكذلك نجده يركز على العناية بالتربية ونشر العلم .

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه عن محمد عبده[1] : إن طريق الأستاذ فى الإصلاح والرقى هو طريق التدرُّج ، يريد أن تُحفظ للأمة عوائدها الكلية المقررة فى عقول أفرادها ، ثم يطلب بعض تحسينات فيها لا تبعد منها بالمرة ، فإذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرقى بالتدريج حتى لا يمضى زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرقى وأعلى من حيث لا يشعرون ، أما إذا وُضع لهم من الحدود ما لم يصلوا إلى كنهه ، أو كُلِّفوا من العمل ما لم يعهدوه أو خُوِّلوا من السلطة ما لم يُعوَّدوه رأيتهم يتخبطون فى السير .

طريق الأستاذ فى الإصلاح ترجع إلى العناية بالتربية ونشر العلم ، وأول مبدأ يجب أن يكون أساساً لتحلية العقول بالمعلومات اللطيفة والنفوس بالصفات الكريمة هو التعاليم الدينية الصحيحة ، أعنى ترغيب القلوب بما يرضى الخالق، وإرهابها مما يغضبه .

كان الشيخ محمد عبده أيام رياسته لتحرير الجريدة الرسمية رجلاً دينياً ، يصدر عن الدين فى كثير من دعواته الإصلاحية تبعاً لروح الوقت ، فهو يلتمس لمجلس النواب أدلة دينية ، ويسعى لإبطال البدع من سبيل دينى ، ويظهر النهج الدينى فى خطابه كله . على أن الدعوة إلى الإصلاح الدينى ، وتخليصه من شوائب الأزمان والأجيال ، ورده إلى سذاجته الأولى ، ليصافح العلم والمدنية ، ويتسع لحرية العقل .

(١) المرجع السابق ص ١١٨ .

تلك الدعوة التى كان الشيخ محمد عبده حامل لوائها لم تكن فى عهد تحريره للجريدة الرسمية إلا نبتاً لم يتكامل نموه.

وإذا كان الشيخ محمد عبده المفكر المستنير شعلة نشاط منذ سنواته الأولى ، وحتى الساعات الأخيرة قبيل وفاته ، فإننا - كما سبق أن أشرنا - نرى أنه كان يمثل المثقف كما ينبغى أن يكون المثقف . ونعنى بذلك أنه لم يقتصر على مجرد دراسة العلوم الدينية والقيام بتدريسها ، بل إنه جمع بين النظر والعمل ، وأضاف طوال حياته الفكرية إلى اهتمامه بالأمور الدينية اهتماماً بالغاً بدراسة أكثر المجالات الفكرية الأخرى ، تماماً كما يفعل المثقف الحقيقى .

وأيضاً أضاف الشيخ محمد عبده إلى البعد النظرى العلمى نشاطاً عملياً واسعاً ، وذلك بحكم المناصب التى تولاها ، وكان فى أكثرها يمثل دور الرائد والمصلح ، هذا بالإضافة إلى حياته القلقة والمصاعب التى واجهته ، وخصومة أهل الجمود والتقليد .

وكان محمد عبده حريصاً على إبداء رأيه فى كل ما يحدث فى مصر بغية الإصلاح والتجديد ؛ كان له رأيه فى الثورة العرابية ، ولم يكن مستريحاً لها ، كان كارهاً لها منددًاً بزعمائها .

ومن الغريب أنه بعد فشل عرابى ، اتُّـهم محمد عبده بالتآمر مع رجال الثورة، وحُكم عليه بالسجن ثم بالنفى ثلاث سنوات ، فاختار سوريا حيث قضى بها فترة قصيرة ، ومنها ذهب إلى فرنسا بدعوة من جمال الدين الأفغانى .

يقول الدكتور عثمان أمين[1] : هبط محمد عبده أرض فرنسا أول مرة فى مستهل عام ١٨٨٤ هـ ، وفى باريس التقى من جديد بأستاذه ، وهناك عملا معاً على تأسيس جمعية وصحيفة أسبوعية باسم « العروة الوثقى » ، جعلت همها الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، والذود عن الشرقيين ، ومكافحة التسلط

(١) كتاب رائد الفكر المصرى محمد عبده .طبعة المجلس الأعلى للثقافة ، وتصدير عاطف العراقى ص ٣٧ .

الأجنبى والطغيان الداخلى ، وتخليص مصر من الاحتلال الإنجليزى بوجه خاص ، وكانت «العروة» أول صحيفة عربية ظهرت فى أوربا نهضت بمثل هذه المهمة الشاقة ، وذادت عنها فى حماسة وبلاغة .

ولا ريب أن حياة محمد عبده فى باريس لم تكن تخلو من طرافة ؛ فقد كان يعمل بهمة لا تعرف الكلل فى تحرير المجلة ، وكان مكتب التحرير ندوة لجميع الشرقيين المقيمين أو الزائرين من مصريين وسوريين وفارسيين وأفغانيين وهنود ، وهناك ترى جمال الدين ومحمد عبده ، وأحياناً الصحفى الثائر يعقوب صنوع ، والفارسى الغريب الأطوار ميرزا باقر .

ويبدوأن إقامة محمد عبده الأولى فى باريس لم تتح له أن يألف الحياة الباريسية أو يتعلم اللغة الفرنسية ؛ فقد كان يحدثنا هو عن نفسه ، يقضى نهاره كله منهمكاً فى أعمال التحرير بالمجلة ، حتى أنه لم يكد يقابل فى باريس إلا الشرقيين.

ثم رحل الشيخ محمد عبده من فرنسا إلى إنجلترا كمندوب عن «العروة الوثقى» فى لندن ، حيث قابل صديقه « ولفرد بلنت » الكاتب الإنجليزى ، كما قابل بعض الشخصيات الإنجليزية .

ولم يطل بقاء الشيخ محمد عبده فى إنجلترا ، إذ نجده يعود إلى فرنسا لاستئناف عمله فى مجلة « العروة الوثقى» .

بعد ذلك نجد الشيخ محمد عبده يغادر فرنسا ويعود إلى بيروت .

يقول الدكتور عثمان أمين[1] معتمداً فى ذلك على ما رواه رشيد رضا فى تاريخه : لقد عُهد إليه التدريس فى المدرسة السلطانية ، وهناك ألقى دروسه المشهورة فى علم الكلام ، تلك الدروس التى كانت أصلاً لرسالته المقبلة عن الله فى نظر الإسلام ، أعنى « رسالة التوحيد » . وفى سوريا قرأ محمد عبده وعلَّم وتأمَّل ، وكان شديد الاهتمام بالمشكلات الفلسفية والدينية التى كانت تشغل الأذهان فى ذلك الحين . وكان من أثر وجوده هنالك أن سما بأنظار الأساتذة

(١) المصدر السابق ص ٣٩ ، ٤٠ .

إلى فن أعلى ، ووجَّه أكبر العناية إلى الجوانب الروحية والأخلاقية فى التربية والتعليم ، ولم تكن تفوته فى بيروت فرصة إلا انتهزها ليبين علة تأخر الشرقيين، وليدعو إلى العناية بدراسة العلوم البشرية مع التغذى بتعاليم الأخلاق والتربية الدينية .

ولم تقتصر جهود الشيخ على التعليم هنالك ؛ فقد أسَّس - بمعونة أشخاص آخرين -جمعية دينية سرية ، من أهدافها التقريب بين الأديان الثلاثة الكبرى : اليهودية والمسيحية والإسلام . وكان القس « إسحاق تيلر » راعى الكنيسة الإنجليزية أحدَ الأعضاء فى تلك الجمعية ، وهو الذى حاول - فيما يبدو - نشر أفكارها فى إنجلترا .

ويقال إنه قد جرت بين هذا القس ومحمد عبده مراسلات كان من آثارها أن تحدَّث القس عن الإسلام حديثاً ودياً ، ونشر بهذا المعنى مقالات فى صحف لندن .

وقبل أن نشير إلى نشاطه فى مصر بعد عودته من فرنسا وإنجلترا وسوريا وبيروت ، لابد أن نقول إن الخلاف بين محمد عبده ورجال الثورة العرابية كان متوقعاً ، فكلٌّ فى طريق ، هل يتم الإصلاح عن طريق الثورات العسكرية (عرابى) أم يتم عن طريق التربية والإصلاح الهادئ (محمد عبده) ؟ تماماً كما كان الخلاف بينه وبين جمال الدين الأفغانى .

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه الذى أشرنا إليه سابقاً [1] ، ومعتمداً فى ذلك على أقوال رشيد رضا فى تأريخه للإمام محمد عبده : كتب الأستاذ رشيد رضا فصلاً فى ملخص سيرة الأستاذ الإمام المنشور فى المجلد الثامن من « المنار » عنوانه « الثورة العرابية » ذكر فيه علاقة الأستاذ الإمام بالثورة العرابية ، وأن البلاد المصرية كانت فى أواخر إمارة إسماعيل باشا فى ظلمات بحر من الظلم لجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات

(١) كتاب الشيخ محمد عبده ص ١٢١ وما بعدها .

بعضها فوق بعض : ظلمة الجور والظلم ، وظلمة الفقر والفاقة ، وظلمة الشرور وفساد الأخلاق والآداب ، وظلمة تحكُّم الأجانب وسيطرتهم على الحكومة بحجة المراقبة المالية لما لهم من الديون على إسماعيل باشا ، وسلطتهم على الرعية التى أغرقها فى الاستدانة منهم كثرة الضرائب والجزى وكثرة الضرب وسوء الجزاء . وكان يظهرمن غمرات هذه الظلمات بصيص من النور فى مواضع مختلفة لمعت جذوة منه فى الأزهر ، فنفخ الشيخ عليش نفخة أخمدتها، ولكنها ما أطفأتها ، ثم كان هذا النور يظهر فى معاهد خاصة فتعشو إليه الأبصار ، ويسير فى ضوئه من سار، حتى أشرق وتلألأ فى إدارة المطبوعات، وانتشر نوره فى سائر الجهات ، وكان ما كان من أخذ الحكومة والناس بوسائل الإصلاح ومقاصده فرحين مستبشرين بأميرهم الجديد (توفيق باشا) لعفَّته عن أموالهم ، ورغبته فى إصلاح حالهم ، وبوزيرهم العامل المخلص (رياض باشا) وإذا بناجم الفتنة قد نجم ، وطائر الشر قد وقع ، إذ هبَّ ضباط الجيش من المصريين يطالبون بحقوقهم ، وأيديهم على مقابض سيوفهم ، وتلك هى ما يسمونه بالثورة العرابية .

وإذا كنا نتفق من وجوه كثيرة مع الشيخ محمد عبده بالنسبة لعرابى والثورة العرابية ، وخاصة ما يتعلق بالاحتلال الإنجليزى ، وكيف كان عرابى ورفاقه يسخرون من قوة الجيش الأجنبى قبل مجيئه إلى مصر لاحتلالها ، بالإضافة إلى أن طريق الإصلاح عند الشيخ محمد عبده يتم عبر تربية النفوس بالاهتمام بالتعليم ، قد يبدو لنا أفضل من الثورات المفاجئة العسكرية . إلا أننا نختلف معه اختلافات جذرية بالنسبة لتشويه صورة محمد على والتقليل من شأنه والهجوم عليه هجوماً عنيفاً ، ونرى أن مآثر محمد على باقية رغم ما قاله محمد عبده .

إننا إذا رجعنا إلى الجزء الثانى من تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، نجد مقالة للشيخ محمد عبده ينقد فيها محمد على نقداً عنيفاً ، وقد كتب المقال الذى

نشر بعد ذلك فى تاريخ الأستاذ الإمام فى مناسبة الاحتفال بذكرى مرور مائة عام على تأسيس محمد على للدولة المصرية .

يقول المقال [1] : ما الذى صنع محمد على ؟ لم يستطع أن يُحيى ، ولكنه استطاع أن يُميت .كان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ؛ فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستعمله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه ، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه . وهكذا حتى إذا سُحقت الأحزاب القوية وجَّه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة ، فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير «أنا» . واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين . وتكرر ذلك منه مراراً ، حتى فسد بأس الأهالى وزالت ملكة الشجاعة منهم ، وأجهز على ما بقى فى البلاد من حياة فى أنفس أفرادها ، فلم يُبْقِ فى البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه.

أخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى ، كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم ، حتى انحط الكرام وساد اللئام ، ولم يبق فى البلاد إلا آلات له يستعملها فى جباية الأموال ، وجمع العساكر بأية طريقة ، وعلى رأى وجيه : فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفس ، ليصيِّر البلاد المصرية جميعها إقطاعاً واحداً له ولأولاده ، على إثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة .

ماذا صنع بعد ذلك ؟ اشرأبَّت نفسه لأن يكون ملكاً غير تابع للسطان العثمانى ، فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوربيين ، فأوسع لهم فى المجاملة ، وزاد لهم فى الامتياز ، خارجاً عن حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية ، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكاً من الملوك فى بلادنا يفعل ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل ، وصغرت نفوس

(١) راجع تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، الجزء الثانى . وراجع أيضاً كتاب الدكتور عثمان أمين عن الشيخ محمد عبده .

الأهالى بين أيدى الأجانب بقوة الحاكم ، وتمتع الأجنبى بحقوق الوطنى التى حُرم منها ، وانقلب الوطنى غريباً فى داره ، غير مطمئن فى قراره ، فاجتمع على سكان البلاد الرسمية ذلاًّن : ذل ضربته الحكومة الاستبدادية ، وذل سامهم الأجنبى إياه ليصل إلى ما يريده منهم، غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة. قالوا إنه أطلع نجم العلم فى سماء البلاد . نعم عُنى بالطب لأجل الجيش والكشف على المجنى عليهم فى بعض الأحيان عندما يراد إيقاع الظلم بمتهم ، وبالهندسة لأجل الرى ، حتى يدبر مياه النيل بعض التدبير ليستغل إقطاعه الكبير . أرسل جماعة من طلاب العلم إلى أوربا ليتعلموا فيها ، فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا فى البلاد ما استفادوا ؟ كلاَّ ولكنه استعملهم آلاتٍ تصنع له ما يريد ، وليس لها إرادة فيما تصنع. وَجَدَّ كثير من الكتب المترجمة فى فنون شتى من التاريخ والفلسفة والأدب ، ولكن هذه الكتب أُودعت فى المخازن من يوم أن طُبعت وأُغلقت عليها الأبواب إلى أواخر عهد إسماعيل باشا ، فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها وتخفيف ثقلها عنها ، فنثرتها بين الناس، فتناول منها من تناول . وهذا يدلنا على أنها تُرجمت برغبة الرؤساء من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم فى بلادنا ، لكنهم لم ينجحوا ، لأن حكومة محمد على لم تُوجِد فى البلاد قراء ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون. يقولون إنه أنشأ المعامل والمصانع. ولكن هل حبَّب إلى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم ؟ وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها فى البلاد ؟ أين هم؟ ومن كانوا ؟ وأين آثارهم ؟ لا بل بغَّض إلى المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم فى العمل والاستبداد بثمرته ؛ فكانوا يتربصون يوماً لايعاقبون فيه على هجر المعمل والمصنع ؛ لينصرفوا عنه ، ساخطين عليه لاعنين الساعة التى جاءت بهم إليه . يقولون إنه أنشأ جيشاً كبيراً فتح به الممالك ودوَّخ الملوك ، وأنشأ أسطولاً ضخماً تثقل به ظهور البحار ، وتفتخر به مصر على سائر الأمصار. فهل علَّم المصريين حب التجنُّد، وأنشأ فيهم الرغبة فى الفتح والغَلَب، وحبَّب إليهم الخدمة فى الجندية وعلَّمهم الافتخار بها ؟ لا بل علَّمهم

الهروب منها ، وعلَّم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يُساقون إلى الموت ، بعد أن كانوا ينتظمون فى أحزاب الأمراء ويحاربون ولايبالون بالموت أيام حكم المماليك . وكان من ينتظم فى الجندية على عهد محرِّر مصر لايخرج منها إلا بالموت ! هل شعر مصرى بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه؟ وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك إليه بأن يقول : هذا جيشى وأسطولى، أو جيش بلدى أو أسطوله ؟ كلاَّ لم يكن شىء من ذلك ، فقد كان المصرى يعد الجيش وتلك القوة عوناً لظالمه ، فهى قوة خصمه . فما أثر ذلك فى حياة مصر والمصريين إلا أسوأ الأثر ، أثر كله شر فى شر ، لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت . ولا يستحى بعض الأحداث من أن يقول إن محمد على جعل جدران سلطانه مبنيةً من الدين ، أىُّ دين كان دعامة للسلطان محمد على ؟ دين التحصيل ، دين الكرباج ، دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده ، وإلا فليقل لنا أحد من الناس أىَّ عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الإسلامى الجليل ؟ لا يذكرون إلا مسألة الوهابية . وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين لا للدين . نعم إن الوهابية غلوا فى بعض المسائل غلواً أنكره عليهم سائر المسلمين ، وما كان محمد على يفهم هذا ، ولا سفك دماءهم لإرجاعهم إلى الاعتدال ، وإنما كانت مسألة سياسية محضة ، تبعها جراءة محمد على على سلطانه العثمانى ، وكان معه ما كان مما هو معروف.

ونرى أن القارئ المنصف فى أحكامه لابد وأن يشعر بالضيق حين يشرع فى قراءة رأى محمد عبده بالنسبة لمحمد على وفترة حكمه لمصر. ونؤكد من جانبنا على أن محمد على قد وضع بصماته البارزة على الإصلاح بمصر ، ولا يمكن لأى منصف أن يقلل من أمجاد محمد على وأمجاد الخديوى إسماعيل ، وكيف نتصور تاريخاً لمصر الحديثة بدون هذين الرجلين؟ إنهما باقيان رغم هجوم محمد عبده على محمد على منشئ مصر الحديثة . ولكن ماذا نفعل أمام اللغة الخطابية الإنشائية التى يلجأ إليها الشيخ محمد عبده . إنه لم يدرك أن من الخطأ اللجوء إلى

هذه اللغة التى إذا صلحت فى خطبة حماسية ، فإنها لا تصلح إطلاقاً عند الحديث عن زعيم كبير كمحمد على ، وكان من الواجب على الشيخ محمد عبده دراسة أحوال مصر قبل محمد على وبعده ، حتى يمكنه المقارنة وإصدار أحكام منصفة .

وقبل الإشارة إلى مرض محمد عبده وموته وأقوال الصحافة بعد موته ، نود أن نقول إن الشيخ محمد عبده بعد عودته إلى مصر من تنقلاته العديدة بين دول عربية ودول غربية ، عمل قاضياً بالمحاكم الشرعية ، كما تم تعيينه عضواً فى مجلس إدارة الأزهر . وما أعجب الأيام : يعين محمد عبده عضواً فى مجلس إدارة الأزهر وكان ناقداً للأزهر . وقد تم تعيينه قبل وفاته بنحو ست سنوات، أى: فى عام ١٨٩٩م مفتياً للديار المصرية ، وبصمات الشيخ محمد عبده على هذه المناصب والوظائف تعد بصمات قوية وثرية ثراء كبيراً فى مجال الفكر والإصلاح ، وستظل مصر والعروبة تدين بالفضل لما فعله الشيخ الإمام ، ويكفى الفتاوى التى أصدرها والتى كانت شاهدة على اتساع أفقه ، ومن بينها الفتوى التى تبيح للمسلمين ادخار أموالهم فى البنوك وأخذ الأرباح عنها ، بعدأن كان يُنظر إلى أرباح البنوك وكأنها نوع من الربا . وليست هذه هى الفتوى الوحيدة التى أصدرها ، بل نجد العديد من الفتاوى فى كتاب الفتاوى لمحمد عبده ، والذى تم طبعه ، وأشار إلى كثير من فتاواه تلميذه الشيخ رشيد رضا حين كتب سيرة محمد عبده فى عدة مجلدات ، ومنها فتوى تبيح للمسلمين أن يأكلوا من ذبائح غير المسلمين ، وفتوى أخرى تبيح لهم ارتداء زى غير زيهم التقليدى ... إلى آخر هذه الفتاوى التى تعد - فى وقتها على الأقل - غاية فى الجرأة والتقدم نحو الإصلاح.

إن أعمال الشيخ محمد عبده من الصعب أن نحصرها ، رغم أنها تمت فى فترة زمنية ليست طويلة .. ومن بينها عضويته لمجلس شورى القوانين ، وسعيه لإنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية التى تهدف - كما قال الشيخ رشيد رضا - إلى

نشر الثقافة بين الطبقات الفقيرة ومساعدة المحرومين وأصحاب الحاجة ، وهذه الجمعية مازالت موجودة حتى الآن وتمارس نشاطها وتتذكر باستمرار أفضال الشيخ محمد عبده ، وقد احتفلت منذ فترة بذكرى وفاة الشيخ الإمام ، هذا بالإضافة إلى مجهوداته لإنشاء الجامعة المصرية ، وأيضاً ردوده وحواراته مع العديد من المفكرين العرب وغيرهم من أمثال فرح أنطون وجابرييل هانوتو.

ولابد قبل الحديث عن وفاته أن نشير إشارة تفصيلية إلى صلته بجمال الدين الأفغانى، حيث أثَّر فى الشيخ محمد عبده ، وكم أثنى عليه ، وإن كنا نلاحظ أن الطبيعة الفكرية للشيخ محمد عبده كانت غير الطبيعة الإصلاحية الثورية والجريئة عند الأفغانى ، بالإضافة إلى أن الجانب الفكرى الأكاديمى كان عند الشيخ محمد عبده أكثر بروزاً مما نجده عند الأفغانى . ولا ندرى المبرر الذى دفع الشيخ محمد عبده إلى أن يقوم بترجمة كتاب « الرد على الدهريين » لجمال الدين الأفغانى عن الفارسية فى الوقت الذى نجد فيه عشرات الأخطاء الفادحة التى وقع فيها الأفغانى عند حديثه عن الفلاسفة على سبيل المثال .

ومما يدلنا على الطبيعة الثورية غير الهادئة عند الأفغانى الصفحات الكثيرة التى كتبها عنه رشيد رضا فى تاريخ الأستاذ الإمام . يقول رشيد رضا فى المجلد الأول من تاريخ الشيخ محمد عبده : كان من عمل السيد جمال الدين ومريديه أن اتصلوا بولى العهد توفيق باشا (الخديوى السابق) واتفقوا معه على تغيير شكل الحكومة وإصلاح شؤونها ، فكان يعد السيد والشيخ من أقوى أنصاره وأوليائه، ولما انتهى الحيف والجور والخلل بخلع إسماعيل باشا ونُصِّب توفيق باشا أميراً على مصر فى رجب سنة ١٢٩٦ هـ طفق السيد جمال الدين يطالبه بإنجاز وعوده ، وأولها إنشاء مجلس نواب للحكومة ، وجعل الوزارة مسؤولية . وظهرت طلائع الإصلاح على يده ، لكن وجد من الواشين من غيَّر قلبه على السيد والشيخ ، وأوهمه أنهما يسعيان فى تقييد سلطته أو إزالتها ، فأمر بنفى السيد ؛ فأُخذ من داره ليلاً فى عربة مقفلة ، وليس عليه غير قميص واحد ،

وأُرسل فى قطار خاص إلى السويس ، ومن هناك ذهب إلى الهند ، وأمر بعزل الشيخ من مدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن .

أثَّرت تعاليم جمال الدين الأفغانى فى تشكيل بعض وجهات نظر الشيخ محمد عبده ، وقد سبق أن أشرنا إلى مجلة «العروة الوثقى» ، بالإضافة إلى مصاحبته بمصر فترات طويلة ، وتشجيع الأفغانى له على الاشتغال بالصحافة بوجه عام .

إن هذا الرجل العجيب والغريب والغامض - والذى توفى عام ١٨٩٧ م - نجد حوله الكثير من الأحكام المتضاربة والمتناقضة ، وكم وجدنا أحكاماً متضاربة حول حياة وآراء المفكرين والمعاصرين منهم على وجه الخصوص .

وإذا كان جمال الدين الأفغانى يعد واحداً من هؤلاء المفكرين المعاصرين ، فإنه من الطبيعى والمتوقع أن نجد أحكاماً لا حصر لها حول الرجل من جهة ، وأفكاره من جهة أخرى ، سواء تلك الأفكار التى تتعلق بالسياسة فى جانبها العملى ، أو الأفكار التى يغلب عليها البعد النظرى ، أى : الأفكار المجردة إلى حد كبير [١] .

بل يمكن القول بأن أكثر الأحكام تضارباً إنما كانت حول جمال الدين الأفغانى ، فهو أكثر من غيره من المفكرين الذين عاشوا قبله بمدة زمنية يسيرة أو عاصروه أو جاءوا بعده ، من حيث التعرُّض لأحكام عديدة متضاربة ، حتى أننا لا نجد حكماً منها يتفق مع الآخر ، وتلك الأحكام بدورها أدت إلى وجود ضباب ، بل ضباب كثيف ، حول الرجل وحياته وأفكاره .

وأول ما أود الإشارة إليه فى محاولةٌ من جانبى لإزالة الضباب من حول جمال الدين الأفغانى أننا كثيراً ما نقع فى أخطاء لا حصر لها بسبب تأويلات مسرفة قد لانجد أساساً لها ، وبسبب تعميمات أعتقد من جانبى بأن أكثرها لا يعد صحيحاً . نعم تأويلات مسرفة وتعميمات جانبها الصواب ، بل فيها إثارة لجوانب عفا عليها الزمن .

(١) راجع كتابنا : العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر ، ص ١٥٩ وما بعدها .

ماذا نستفيد من البحث فى جنسية هذا المفكر أو ذاك من المفكرين الذين نتعرض للبحث فى آرائهم ؟ ما وجه استفادتنا من البحث فى حقيقة الموقف الدينى لمفكر أو آخر ؟ وهل كان مؤمناً أم ملحداً ؟ هل كان مؤمناً حقاً أم أنه كان يتظاهر بالإيمان ؟ إلى آخر تلك الجوانب التى أعتقد من جانبى أنها تعد نوعاً من اللغو الذى لا يفيد فى قليل أو كثير .

نعم نريد أن نتجاوز ذلك كله لنركز على الجانب الفكرى الثقافى ؛ فإذا حلَّلنا من جانبنا سيرة جمال الدين الأفغانى ، والذى ولد عام ١٨٣٩م ، وتأملنا بدقة فى نشاطه الفكرى وقمنا بالموازنة بين الجانب الأول : سيرته وأوجه نشاطه السياسى . والجانب الثانى : الذى يتبلور حول ما ترك من كتابات ومؤلفات ، فإننا ندرك أول ما ندرك وجود نوع من عدم التوازن ، إن لم يكن التناقض بين كل جانب منهما والجانب الآخر ، بين الجوانب العلمية والسياسية والإصلاحية من جهة ، وآرائه الفكرية والنظرية بوجه عام من جهة أخرى .

صحيح أنه توجد صلة بين كل جانب منهما والآخر ، ولكن ما نقصده هو القول بأن الأفغانى بقدر ما كان منطلقاً وجريئاً من الناحية السياسية ، فإنه على العكس من ذلك بالنسبة للجانب أو البعد أو المجال الفكرى ، إنه لم يكن متحرراً فى فهمه وتقبُّله للمذاهب الفلسفية والآراء العلمية فى الغرب بوجه عام، بل كان يسود فهمه لتلك المذاهب والآراء نوع من التحفظ وصل إلى حد الجمود والانغلاق فى أحيان كثيرة .

إننا إذا كنا قد أشرنا - منذ قليل - إلى نوع النقد الذى يمكن توجيهه إلى التراث الذى تركه لنا الأفغانى ، إلا أن ذلك لا يقلل من الجهد الكبير الذى قام به هذا الرجل ، ولا من دوره فى مجال الفكر والعمل فى آنٍ واحد . إن النقد سواء كان من جانبنا أو من جانب الآخرين إن دلنا على شىء فإنما يدلنا على أهمية الرجل وأهمية أفكاره سواء اتفقنا معها أو اختلفنا ، وأهمية مساهماته فى دنيا السياسة والإصلاح. إن المؤرخ لتاريخ الفكر الإسلامى المعاصرلن يكون بإمكانه أن يتخطى جمال الدين الأفغانى ، لن يكون بمقدوره أن يتغافل عن

الدور الذى قام به جمال الدين الأفغانى ، لابد أن يسلِّم بأثر جمال الدين الأفغانى فى الحركة السياسية وأثره على أكثر من مفكر جاء بعده .

لقد تثقف الأفغانى بثقافة شاملة ، فتعلَّم الفارسية والعربية ، ودرس الفلسفة الإسلامية والمنطق والتصوف[١] ، وألمَّ ببعض آراء المفكرين الغربيين ، كما درس الرياضة بالهند ، وألمَّ أيضاً باللغة الفرنسية إلمامة يسيرة وخاصة أثناء إقامته بباريس .

وقد طاف الأفغانى بكثير من البلدان شرقاً وغرباً واستفاد الكثير من الخبرات من زياراته العديدة لتلك البلدان ، إذ أنه كان شعلة نشاط . لقد طاف وأقام بكثير من البلدان ، ومن بينها مكة وفارس وتركيا والهند .

ومن أهم البلاد التى أقام بها واستفاد من وجوده فيها - كما أفاد تلاميذه - مصر ، إذ أنه أقام بمصر حوالى ثمانى سنوات .

ويمكن أن نقول إن نشاط جمال الدين الأفغانى[٢] بمصر كان يجمع بين جانبين : الجانب العملى ، والجانب النظرى . لقد كان يلقى بعض الدروس على كثير من تلاميذه ، ومن بينهم محمد عبده وإبراهيم اللقانى . وكان يجرى الكثير من المناقشات السياسية التى تدخل إلى حد كبير فى إطار الجانب العملى ، أى: الجانب الإصلاحى والاجتماعى . وكان يناقش العامة والخاصة ، ويتكلم فى أكثر المجالات ، إن لم يكن كلها ، ولهذا يجتمع حوله الشاعر والطبيب والمشتغل بالجغرافيا والمشتغل بالطبيعة والهندسة ، وسرعان ما كان ينتقل من مناقشة قضية علمية إلى التدخل فى السياسة .

وهذا إن دلنا على شىء فإنما يدلنا على أن جمال الدين الأفغانى كان شغوفاً بالجانب السياسى ، أو الصحيح أن نقول إنه كان يحاول صبغ الأشياء بصبغة سياسية ، أو حشر السياسة فى مناقشاته حول موضوعات أخرى ليس من الضرورى أن تكون لها صلة بالسياسة ، وهذا ما يثير تساؤلات كثيرة عن حقيقة هذا الرجل الغامض .

(١) يمكن الرجوع إلى كتاب مهم ألفه الأستاذ نسيم مجلى عن الدكتور لويس عوض ومعاركه الأدبية .

(٢) يمكن الرجوع إلى مقالة لنا عن سلبيات الأفغانى بجريدة الأهرام .

لقد حاول أن يبث أفكاره عن طريق المحفل الماسونى الإسكتلندى الذى انضم إليه ، ولكنه هاجمه بعد ذلك لأنه وجد أعضاءه لا يحبون أن يتكلموا كثيراً فى السياسة ، وهذا يدلنا - كما قلنا - على أن المجال الرئيسى لاهتمامات الأفغانى إنما هو المجال السياسى ، بل إن هذا المجال يعد الباعث والدافع لكل أفكاره ومجالات نشاطه . إن هذا المجال يمثل بؤرة الشعور ، يمثل مركز الدائرة عند الأفغانى ، إنه يعد رجل عمل أساساً أكثر من كونه رجل نظر فلسفى قائم على التأمل والتفكير الطويل العميق . لقد كانت السياسة فى دمه وفى أعماقه وفى خلجات شعوره ووجدانه . ولعل هذا يفسر لنا سبباً من أسباب الخلاف بين الأفغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده ، وذلك على النحو الذى أشرنا إليه منذ قليل.

وفى الفترة التى أقام فيها بباريس بعد أن صدر ضده حكم بالنفى ثلاث سنوات بعد فشل ثورة عرابى ، نجده يفكر فى إصدار مجلة العروة الوثقى ، وقد صدر العدد الأول منها فى اليوم الثانى عشر من شهر مارس عام ١٨٨٤م ، وكانت الأفكار الموجودة فى تلك المجلة للأفغانى ، وإن كان الأسلوب والصياغة للشيخ محمد عبده ، بل نقول إن دور الشيخ محمد عبده فى المجلة كان أكثر بروزاً من دور الأفغانى .

كما نجد الأفغانى يتنقل بعد ذلك بين إنجلترا وتركيا حتى مات بعد أن ظهرت عليه أعراض مرض السرطان ، وإن قيل أنه مات مسموماً ، وذلك فى التاريخ الذى أشرنا إليه منذ قليل .

وعلى الرغم من تنقلاته فى كثير من البلدان شرقاً وغرباً ، فإنه كان يشعر بالحنين دوماً إلى مصر ، ويقول : إن مصر هى أحب بلاد الله إلىَّ ، وقد تركت لها الشيخ محمد عبده طوداً من العلم الراسخ .

قلنا إن النشاط السياسى كان هو الغالب والمسيطر والموجِّه لجمال الدين الأفغانى ، إنه وراء أكثر رحلاته وتنقلاته ومناقشاته . ونعتقد من جانبنا إذا

التزمنا بالصراحة والدقة والموضوعية أنه من الصعب أن ننظر إلى الأفغانى كمفكر ممتاز ، أو كمفكر له وزنه فى جوانب أخرى غير سياسية . إن له مجموعة من الخواطر فى مجالات عديدة متنوعة ، ولكنها لا تعبِّر عن مذهب أو نسق فكرى دقيق أو متكامل ، ولا تكشف عن منهج واضح محدد .

إن حصيلته الفلسفية والعلمية تعد ضئيلة فى الواقع ، وبضاعته فى هذا المجال تعد أضعف من خيط العنكبوت ، ودعونا نتكلم بصراحة : إن أى فرد من الباحثين إذا حاول العثور على مذهب مكتمل أو دقيق ، أو حاول التعرف على خيط يربط بين أفكاره تلك العلمية منها والفلسفية فإن وقته ضائع عبثاً .

إننا كثيراً ما نجد عند الأفغانى خلطاً بين مجال الدين ومجال العلم ، كثيراً ما نجده يتصدى لمناقشات علمية وهو غير مزوَّد بالأدوات التى تلزم الباحثين فى هذه المجالات العلمية والفكرية والفلسفية ، ومن بينها إتقان اللغات التى كتب بها الباحثون فى هذه المجالات . إنه كثيراً ما يتعرض لقضايا علمية وفلسفية وهو غير مزوَّد بمنهج العالم المتخصص ، مما جعل مناقشاته فى المجالات الفكرية الدقيقة مناقشات يغلب عليها أحياناً السطحية وعدم الإلمام بدقة بكل جوانب الموضوع الذى يتصدى لمناقشته والبحث فيه وإصدار الأحكام حوله .

فإذا قيل إن الإفغانى كان نابغاً فى نشاطه السياسى ومناقشاته السياسية العميقة سواء اتفقنا معه أم لم نتفق ، فإن هذا القول يعد صحيحاً ، أما إذا قيل بأنه كان نابغاً فى المجالات الفكرية والعلمية الدقيقة ، فإننى أقول اليوم من جانبى : لا ثم لا . إن شهرة جمال الدين الأفغانى فى النشاط السياسى قد حجبت عن الكثيرين أخطاءه فى مجالات أخرى . وإذا قال نفر من الباحثين بغير ذلك فلهم دينهم ولنا دين . لقد آن الأوان أن ندرس الأمور بصراحة وموضوعية وخاصة فى مجال الفكر ، وذلك حتى يتسنَّى لنا بعد ذلك تصحيح كثير من المفهومات الخاطئة وما أكثرها .

إن القارئ لكتاب جمال الدين الأفغانى « الرد على الدهريين » يجد - كما سبق

أن أشرنا - مغالطات عنده لا حصر لها ، وذلك على الرغم من صغر حجم الكتاب ، يجد الأفغانى يدخل نفسه فى مناقشات حول موضوعات علمية وفلسفية وهو غير مؤهل للبحث فيها . من حق الأفغانى أن يرد على الدهريين أو الماديين ، ولكن ليس من حقه أن يلجأ إلى الخلط وعدم الدقة .

وإذا كان الأفغانى قد سعى إلى شن الحملة على مجموعة من المذاهب المادية التى أتت من الغرب ، فإنه كان ينبغى عليه عدم التأثر فى نقدها بالاستعمار الغربى لكثير من البلدان العربية والشرقية بوجه عام . إن هذا من جانبه يشبه نفراً من الناس يقومون بحملة ضد اللغة الإنجليزية تارة وضد اللغة الفرنسية تارة أخرى ، وسبب حملتهم هذه هو الاستعمار الإنجليزى والفرنسى .

هل أتيحت للأفغانى الدراسات العلمية والاطلاع على المناهج العلمية وإجراء التجارب العلمية حتى يقوم بالتعرُّض للمذاهب المادية التى كان أصحابها لهم ثقافتهم وأساسهم العلمى ؟ الإجابة بالنفى بطبيعة الحال . إننى لا أناقش الآن صحة المذاهب المادية أو عدم صحتها ، ولكن أليس من واجب من يناقش أمراً ما أن يكون مؤهلاً بحكم ثقافته العلمية للحكم على هذه الجوانب .

إن التاريخ يعطينا الكثير من الأمثلة على ضرورة اطِّلاع الخصم على الثقافات التى يريد أن يناقشها ويحكم عليها . إن المعتزلة والفلاسفة بوجه عام فى تاريخ الفكر الفلسفى العربى حين أرادوا الرد على حجج المنكرين للألوهية وأقوال الذين يذهبون إلى القول بوجود إلهين : إله للخير وإله للشر ، قاموا بدراسة وتحليل آراء هؤلاء أولاً وذلك حتى يتسنَّى لهم مناقشة وتفنيد هذه الحجج .

أما عند الأفغانى فإننا لا نجد فى مناقشته لهذه المذاهب إلا عبارات خطابية عامة غير محددة ، القصد منها التهويل والمبالغة ، إنه يردُّ الفساد كله - حتى الفساد الخُلقى - إلى آراء الطبيعيين الماديين .

إنه يصدر أحكاماً على كثير من المفكرين الفرنسيين بوجه عام دون الرجوع إلى كتبهم ، ودون الرجوع إلى ما كُتب عن إسهامهم فى مجال الفكر . إنه يقول

- على سبيل المثال - عن فولتير وروسو ما يلى : الأضاليل التى بثها هذان الدهريان (فولتير وروسو) هى التى أضرمت نار الثورة الفرنساوية ، ثم فرَّقت بعد ذلك أهواء الأمة وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها ، فاختلفت فيها المشارب وتباينت المذاهب وأوغلوا فى سبل الخلاف زمناً يتبعه زمن حتى تباين صدعهم وذهب كل فريق يطلب غاية لا يرى وراءها غاية .

ومن الواضح أن أحكام الأفغانى هذه فجَّة ومتسرعة إلى حد كبير ، إنها لا تزيد على كونها - كما قلت - مجموعة من العبارات الإنشائية البلاغية .. بل هو ينسب للماديين أنهم دعوا إلى القضاء على مَلَكة الحياء أى : الخجل .

إنه يقول فى كتابه « الرد على الدهريين » : لا يخفى أن الأمانة والصدق منشأهما فى النفس الإنسانية أمران : الإيمان بيوم الجزاء ، ومَلَكة الحياء . وقد ظهر منه أن من أصول مذاهب هذه الطائفة إبطال تلك العقيدة ومحو هذه الملكة الكريمة ، فيكون تأثير آرائهم فى إذاعة الخيانة وترويج الكذب أشد من تأثير دعوة داعٍ إلى نفس الخيانة والكذب .

هذه مجرد نماذج قليلة مما نجده فى كتاب الأفغانى «الرد على الدهريين». والواقع أن الكتاب كله لا يزيد على مجموعة من الشتائم التى يوجهها الأفغانى إلى مذاهب لم يرتضِ لنفسه تأييدها . إن من حق الأفغانى - كما قلنا - أن يختلف فى رأيه مع هذا المذهب أو ذاك من المذاهب أو الآراء ، ولكن ليس بهذه الصورة الإنشائية البلاغية التى تقوم - كما قلنا - على مجموعة من المبالغات والأخطاء الكثيرة .

ومهما يكن من أمر ، فإننا نجد من واجبنا أن نقول إنه يشفع للأفغانى أنه بذل جهداً كبيراً فى كثير من المجالات العملية السياسية وفى التأثير على كثير من الذين تلقوا العلم على يديه ، ومنهم الشيخ محمد عبده ، ولكن ذلك يجب ألا ينسينا أن دوره فى التنوير كان دوراً ضئيلاً للغاية ، بل سادت محاولته التنويرية الكثير من الخيوط الظلامية ، وإن كان أكثرهم لا يعلمون .

وإذا كنا قد وقفنا وقفة طويلة عند جمال الدين الأفغانى ، فإن سبب ذلك أن الحديث لا ينقطع عنه عند دراسة الشيخ محمد عبده . نجد هذا فى تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، وفى مؤلفات عديدة عن الشيخ محمد عبده ، على رأسها كتاب الدكتور عثمان أمين ، وكتاب الشيخ مصطفى عبد الرازق ، و«زعماء الإصلاح فى العصر الحديث» لأحمد أمين ... إلخ .

ونقول إن الشيخ محمد عبده قد خاض طوال حياته العديد من المعارك الفكرية - كما أشرنا - وكان له من الأعداء أكثر مما له من الأصدقاء ، ولكنه خالد بحسه التجديدى ، باقٍ برؤيته الإصلاحية ، أما إذا وجدنا له نقاداً ومهاجمين وحُسَّاداً سواء فى حياته أو بعد مماته ، فإن هذا يعد شيئاً طبيعياً ومتوقعاً ، فأهل الجمود أنيابهم حادة ، وأهل التقليد يدفعهم الجهل إلى محاربة كل تجديد وكل إصلاح . وكم اتُّهم محمد عبده بأنه كان يسعى إلى تقويض دعائم وأركان الدين.

وقد نشر الدكتور عثمان أمين فى كتابه الرائع والممتاز عن رائد الفكر المصرى محمد عبده جزءاً مما جاء فى كتاب يقول عنه الدكتور عثمان أمين أن الذى كتبه أحد مأجورى الخديوى عباس .

يقول الدكتور عثمان أمين فى كتابه [1] : من قبيل هذه المفتريات المغرضة ما نقرأه فى كتيب حقير لأحد مأجورى الخديوى عباس ، لم يرزق كاتبه من الشجاعة ما يمكنه أن يكشف عن اسمه وشخصيته ، بل اكتفى بأن نشر وريقات تافهات جعل عنوانها « كشف الأستار فى ترجمة الشيخ الفَشَّار » تأليف الحرة إللى لسانها خارج لبرَّة ، خادمة الوطن والدين ، وغيورة على المسلمين ، الست المصونة والجوهرة المكنونة حمارة منيتى . قال المؤلف الذى يكنى عن نفسه بـ «حمارة منيتى» فى ص٣ : وحيث إن الأمر خطير والموقف حرج ، وصاحبنا (يقصد الأستاذ الإمام) فى سلك الفلاسفة مندرج ، جاءت الست حمارة بترجمة حياته ومماته .

(١) ص ٢٣٩ طبعة المجلس الأعلى للثقافة ، تصدير : عاطف العراقى .

ويغلب على ظنى أن مسوِّد هذه الوريقات العامية البذيئة هو عينه مسوِّد وريقات أخرى كريهة نشرها بعنوان « تحذير الأمم من كلب العجم » كلها طعن وقح وتهجُّم رخيص على السيد جمال الدين الأفغانى ، لا لشىء إلا لأنه اشتغل بالفلسفة والثورة على الملوك .

أما عن وفاته وجنازته وكلمات التأبين التى قيلت بعد وفاته من العرب والغربيين ، فقد جاءت كل تفصيلاتها فى مئات الصفحات من تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا . إن هذا التاريخ يعد أوفى وأشمل مرجع عن الشيخ محمد عبده ، والتأريخ له وعرض أفكاره وأثره بعد مماته . ولهذا سنكتفى بذكر حديث موجز عن مرضه ووفاته وجنازته وبعض أقوال المفكرين والصحفيين ، وهذه الأقوال التى اتفقت على المكانة الكبرى للشيخ محمد عبده والفراغ الهائل الذى تركه بعد وفاته فى دنيا الأزهر والإصلاح والتجديد والفتاوى .

أما كل التفصيلات فيمكن الرجوع فيها إلى رشيد رضا . إنها تقع فى أكثر من نصف ألف من الصفحات ، لدرجة تؤدى بنا إلى القول بأننا لم نشهد فى تاريخنا الحديث والمعاصر شخصية دينية كانت الشغل الشاغل للناس فى حياته، والأكثر والأهم ما كُتب عنه فى أكثر دول العالم فيما يتعلق بجنازته والكلمات والمقالات التى كُتبت عنه فور مماته .

يقول رشيد رضا فى تاريخه : مرض الأستاذ الإمام : لقد مرض أستاذنا منذ أشهر مرضاً كنا نظن أنه من الأمراض الهينة التى كانت تعتاده ، ولكن طال الزمان ورأينا كل مَنْ عُرض عليه من الأطباء ينهاه عن الأعمال العقلية وإجهاد الفكر ، ويأمر بالحميَّة والراحة التامة ، وهو لا يزداد إلا إجهاداً لنفسه وجهاداً لأمته ، وكان موضع المرض المعدة والأمعاء فانتقل إلى الكبد فاختلف الأطباء حينئذ بين قائل إن المعدة هى الأصل والكبد تأثرت منها ، وقائل إن الكبد بتمددها تضغط على المعدة فتمنعها من وظيفتها . وأجمعوا على اختلافهم فى أى العضوين هو الأصل على وجوب ترك العمل بتاتاً والتعجيل بالسفر إلى أوربا، وكل منهم أشار بترجيح بلاد واختيار أطبائها ، فرضى الأستاذ بالسفر ولكن لم

يرضَ القدر ، إذ كانت السفن الدورية التى تنقل الناس إلى أوربا لا تقبل زيادة على من سبق إلى أخذ جوازاتها من السائحين والمصطافين إلى يوم ١٤ من الشهر الأفرنجى الماضى (يونيو) فأخذ جوازاً وصبر عن السفر ، ولكنه لم يصبر عن العمل كدأبه وعادته ، فكان يبيت على فراش الآلام ويغدو إلى محل عمله فينظر فى الفتاوى وفى أعمال مجلس الشورى ومجلس الأوقاف الأعلى وأعمال الجمعية الخيرية الإسلامية وأوقاف الحنفية ، ويشتغل مع اللجنة التى يرأسها لوضع نظام لمدرسة القضاء الشرعى ، ويحضر امتحان مدرسة دار العلوم ، وينظر فى حاجات المحتاجين وطلاب المساعدة والشفاعة عند الحكام فيقضى حاجاتهم ، حتى ثقلت عليه وطأة المرض وعجز عن الخروج ، واشتدت عليه الآلام حتى كان يشتغل على فراشه عند سكون نوبة الألم ، ولم يكن شىء من ذلك الشغل لنفسه ولا لأهله وولده ، ولكنه للناس ، وهل كان الناس يشفقون عليه ادخاراً له وتأدباً معه ، أو عملاً بالذوق الذى يفخر به أهل هذا البلد ؟ كلاَّ إنهم كانوا يكلِّفونه النهوض بأثقالهم وقوفاً على سريره وهو مضطجع أو مستلقٍ عليه ، وكان يعمل ما قدر ، ويعتذر عما يعجز طالباً الانتظار والإمهال إلى أن تحسن الحال .

جرى على هذه الحال يعمل للناس والمرض يعمل فيه ، ويُنهك قواه ويُنحل جسده حتى إذا ما دنا موعد سفره رآه بعض الأطباء فقال إن المرض ينذر بالخطر ، ولا يجيز له الإقدام على السفر ، فجىء بطبيب آخر فقال قولة الأول ، فتكتَّم هذا القول من عرفه من الأصدقاء وذوى القربى وساروا به فى اليوم التالى إلى الإسكندرية (العاشر من ربيع الآخر) ورآه من ليلته بعض أطبائها فقالوا مثل ما قال الأولان ، وهو لم يعلم بهذا القول ، بل قيل له إن الأطباء قالوا إن جسمك لا يقوى على مشقة سفر البحر ، فيجب أن تتريض فى الإسكندرية لعلك بتغيير الهواء تجد قوة تمكنك من السفر ، وعند ذلك هيَّأ له الصديق الوفى محمد بك راسم دار أخيه فى رمل الإسكندرية ونقله إليها .

كانت الجرائد اليومية أذاعت خبر سفر الأستاذ إلى أوربة ثم ذكرت أنه أرجأ السفر بأمر الأطباء ، فعلم القاصى والدانى من أهل هذا القطر بمرضه ، وظهر من آيات مكانته فى نفوس الناس ما لم يُكن يعلم كله ، فكان شغلاً شاغلاً للعقلاء والفضلاء من جميع الأصناف والطبقات ، كان أمراء البيت الخديوى ومن حضر من نُظَّار الحكومة لا سيما رئيسهم « القائم مقام الخديوى » وغيرهم من كبراء الأمة يترددون على الدار التى يقيم فيها المرة بعد المرة ، وكان بعض الأمراء يرسلون إليه أطباءهم ، وكانت الرسائل ترد كل يوم فى البرق والبريد من جميع أنحاء القطرين - مصر والسودان - تسأل عن صحته ، وكلما وجد يوماً راحةً تبشر الجرائد بها الأمة فيصبح الناس مطمئنين ، فإذا سكتت الجرائد يوماً عن البشارة لجوُّا فى السؤال مستخبرين .

أما نحن - معشر أهليه وأقرب أصدقائه ومريديه - فإننا نتراوح بين اليأس والرجاء ، إذا رأيناه فى راحة من الألم يرجح أملنا ، حتى إذا ما تألم عظم خوفنا ووجلنا ، فمثلنا فى ذلك مثل مقياس الحرارة كل يوم فى صعود وهبوط بحسب ما ترى من حاله . ولا غرو فهو كالهواء لحياتنا المعنوية وكالشمس لأمتنا المسكينة ، ونسأل الله تعالى دفع البلاء واللطف فى القضاء وتعجيل الشفاء إنه سميع الدعاء .

وبعد أسبوع من صدور هذا الجزء[1] من «المنار» توفَّاه الله تعالى إليه فى الساعة الخامسة بعد الزوال من ثامن هذا الشهر (جمادى الأولى) الموافق الحادى عشر من يوليو (تموز) سنة ١٩٠٥ م فياله من رزء وجلت له القلوب ، وذرفت العيون ، وفاضت الشؤون ، واعتصم المؤمنون بآية (إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون) .

أما تأبين رشيد رضا للشيخ الإمام ، والذى ذكره فى الجزء العاشر من المنار فكان كما يلى: مصاب الإسلام بموت الإمام : مات الأستاذ الإمام ولو كان كبر

(١) يقصد الجزء التاسع . وراجع أيضاً الكتاب التذكارى الذى صدر تحت إشرافنا عن المجلس الأعلى للثقافة فى عام ١٩٩٥ م .

النفوس ، وطهارة الأرواح وعلو الهمم ، مما يحول دون الموت لما مات أبداً ، ولكن كل حى يموت إلا الحى القيوم (إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون) .

مات الأستاذ الإمام فمات ذلك العلم الواسع ، والحكمة البالغة ، والحجة الناطقة ، والمعارف الكونية والإلهية ، والعلوم الكسبية واللدنية ، مع البيان الساحر ، والأدب الباهر ، والبلاغة التى تمتلك العقول والقلوب ، والفصاحة التى تستهوى الأسماع والنفوس .

مات الأستاذ الإمام فماتت تلك الأخلاق القدسية ، والشمائل المحمدية ، والصدق فى القول والفعل ، والإخلاص فى السر والجهر ، والوفاء فى القرب والبعد ، والسخاء فى العسر واليسر ، والعفة فى الشباب والكهولة ، والحلم عند الغيظ والمغاضبة ، والعفو مع القدرة على المؤاخذة ، والتواضع وخفض الجناح للمخلصين ، والشهامة ، والترفُّع على المنافقين والمستكبرين ، واللين للحق وأهله ، والشدة على الباطل وجنده ، والشجاعة التى يهابها الأمراء والعظماء ، والقناعة التى رفعت رأسه فوق الرؤساء .

مات الأستاذ الإمام فماتت تلك الأعمال النافعة ، والمشروعات الرافعة ، والمساعى الجديدة ، والوسائل المفيدة ، والاجتهاد فى ترقية الأمة ، والدفاع عن الملة ، والدعوة إلى التوحيد والتأليف ، والاشتغال بأفضل التعليم والتأديب ، والتربية الصحيحة للمريدين ، والجمع بين علوم الدنيا والدين ، ومواساة البائسين والمعوزين ، وكفالة أولاد الفقراء والمساكين.

مات الأستاذ الإمام فماتت تلك الآمال البعيدة والمقاصد الحميدة ، التى كانت مطوية فى ذلك الجِرْم الصغير، الذى انطوى فيه العَالَمَ الكبير ، تلك الآمال التى تتضاءل دونها همم الملوك والأمراء ، وتتصاغر أمامها نفوس الزعماء والأغنياء ، الذين هم عن استعمال مواهبهم مصروفون ، وعن الثقة بربهم محجوبون ، وعن سُنَّته فى خلقه غافلون .

مات الأستاذ الإمام فراع موته الناس من جميع الطوائف والأجناس ، فعلم

علماء الدين أنهم فقدوا ركنهم الركين ، الذى تحمَّل عنهم رد الشبهات وغير ذلك من فروض الكفايات ، وعلم علماء الدنيا أنهم خسروا ركنهم الأقوى الذى يدفع عنهم مطاعن المعتصبين وتكفير الجامدين ، ويثبت أن الإسلام جمع بين المصلحتين ، ولا يتم ذلك إلا بالجمع بين العلمين . وشعر طلاب الإصلاح بأنهم فقدوا إمامهم العظيم الذى كملت فيه صفات الزعيم ، وأحس الفقراء والمساكين بأنهم رُزئوا بكافل اليتامى وغوث العاجزين . ولم يجهل القائمون بالشؤون العامة شدة وقع هذه الطامة ، وأنهم نُكبوا بصاحب الرأى الثاقب والعمل النافع ، مربِّى الرأى العام فى الشؤون والجمعية العمومية ، صاحب اليد البيضاء فى الأوقاف الإسلامية ، المضطلع بإصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية ، الناهض بأعباء الجمعية الخيرية ، الموفِّق بين الحكومة والرعية ، واعترف أهل الملل بأن مصابه مصاب الإنسانية ، والخسارة الكبرى على العلم والمدنية .

مرض هذا البَـرُّ الرحيم فكان على فراش الموت يسأل عن بعض الضعفاء ، ويبحث عن مساكن القواعد من النساء ليواسيهم بالبِـرِّ من وراء السِّتر . وقال لى إن فلاناً الغريب قد انقطع عن السفر بدَيْنٍ عليه ، وإننى مستغنٍ الآن عن مائة جنيه ، فإن كانت كافية أرسلتها إليه ، ولكنه غاب عن الوجود قبل أن يقضى لبانته من البر والجود .

مرض هذا المصلح العظيم فاضطربت الأمة المصرية لمرضه ، فكانت الدار التى يُمرَّض فيها كعبة العائدين من العلماء والأمراء والوزراء والأدباء والفضلاء والفقراء والأغنياء ، وكان البرق يناجيها كل يوم مع البريد بالنيابة عن العاجز والبعيد ، سائلين عن صحته أو مهنئين بما يقال عن راحته ، فكان يحمد الله أن جعل الدهماء من أمته يعرفون لخادمها خدمته ، ويشكرون للعامل لها عمله ، ويقول : لئن شُفيت لأُجهدنَّ النفس فى خدمتكم أجمعين ، حتى أكون حَرَضاً أو أكون من الهالكين .

مرض الأستاذ الإمام فلم يَعُقْهُ المرض عن خدمة المسلمين والإسلام ،

واحتضر الأستاذ الإمام وهو يفكر فى مصلحة المسلمين والإسلام ، ومات الأستاذ الإمام هو يلتهب غيرةً على المسلمين والإسلام .

نقول مات الإمام فنبدى القول ونعيده ، ننصر الحس ، ونكابر النفس ، فقد كادت تحسب أن موته رؤيا منام وأضغاث أحلام ، وما هو إلا الحق اليقين ، ومصير الأولين والآخرين ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٣٤ ـ ٣٥] مات أستاذنا وإمامنا ولك اللهمَّ البقاء ، فلا تفتنا بعده ولا تحرمنا أجره واغفر لنا وله .

نعم إنه قد مات ، ولكن لم تمت علومه ومعارفه ومآثره وعوارفه ، فلقد ربَّى أرواحاً ، وأصلح إصلاحاً ، وألَّف كتباً ، وترك علماء وأدباء ، وأمات سُنناً سيئة له أجر إماتتها ، وأحيا سُنناً حسنة له أجرها وأجر من يعمل بها ، وعلَّمنا كيف نفهم القرآن ، ونقيم شرائع الإسلام مع تؤخِّى نفع الناس أجمعين ، والإخلاص لله رب العالمين .

مات أستاذنا وإمامنا فكبر علينا موته ، ولكنه ربَّانا على الصبر ، وعلَّمنا كيف نتعزَّى عنه حتى فى مرض موته ، فلئن كان بفضل الله كبيراً فينا فالله أكبر ، ولئن كان مرضه وموته كبيراً علينا ، فالله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىِّ العظيم، ومن يعتصم بالله فقد هُدِىَ إلى صراط مستقيم .

لبَّى دعوة ربه برمل الإسكندرية فى الساعة الخامسة بعد الزوال من يوم الثلاثاء ثامن جمادى الأولى ، فنعاه البرق بآلاته الناطقة والكاتبة إلى العاصمة وغيرها من مدن القطر؛ فاضطربت لنعيه القلوب ، وذرفت العيون ، واسترجعت الألسنة وحوقلت ، وطفق الناس يعزِّى بعضهم بعضاً متفقين على أن المصاب به عام ، وأشد وقعة على المسلمين والإسلام ، وما كنت تسمع من البعيد والقريب ، والبغيض والحبيب ، والوطنى والأجنبى ، والرشيد والغوىّ ، والعالم والجاهل ، والمفضول والفاضل ، إلا كلمة « خسارة لا تعوَّض » أو كلمة « عوَّض الله الأمة به خيراً » أو قول الشاعر :

وما كانَ قَيْسٌ رُزْؤُهُ رُزْءٌ واحدٌ ولكنَّـهُ بُنْيَـانُ قَـوْمٍ تَهدَّمَا

أو قول الآخر :

ولكـنَّ الرَّزِيَّـةَ فَقْـدُ حُـرٍّ يَمـوتُ لموتـهِ خَلْـقٌ كثـيرُ

وقد اجتمع مجلس النظار فقرر أن تحتفل الحكومة رسمياً بتشييع جنازته فى الإسكندرية ومصر ، وأن تُنقل جثته على قطار خاص إلى العاصمة ففعلت، وشاركتها الأمة ونزلاؤها والمحتلون بهذا التشييع الذى لم يسبق مثله لغيره ، حتى كان يخيَّل للمشيِّع أن لم يبقَ أحد من سكان الإسكندرية ولا من سكان القاهرة إلا وقد حضر ليودِّع هذا الإمام الوداع الأخير ، وقد صُلِّىَ عليه فى الجامع الأزهر ودُفن فى قرافة المجاورين . تغمَّده الله برحمته ورضوانه ، وأسكنه فسيح جناته .

هذا ما نجده بالنسبة لوفاته عند رشيد رضا فى سيرة الأستاذ الإمام ، وقد أُودع جثمانه مقبرة العفيفى بالقاهرة[1] ونُقش على قبره ما يلى : « هو الحىُّ الباقى» :

لقدْ خَطَطْنَا للمَعَالى مَضْجِعَا وَدَفَنَّا الدِّينَ والدُّنيـا مَعَـا

هنا دفن الأستاذ الإمام الحكيم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية. ولد سنة ١٢٦٦ هـ وتوفى سنة ١٣٢٣ هجرية قمرية . حياته سبعة وخمسون عاماً . قضى أولها فى التعلُّم ، ووسطها فى التعليم ، وآخرها فى إعلاء الدين ونفع المسلمين .

أيهـا الديـنُ ابْـكِ حَـبْراً كـانَ طَـوْداً مُشْمَخِـرًّا
مَنْصِبَ الإفْتَـاءِ أرَّخْ مـاتَ مفتـى النَّاسِ طُـرًّا

أما عن وصف سير الجنازة سواء بالإسكندرية أولاً ثم القاهرة ثانياً ، بعد نقل الجثمان إليها ، فإننا نجد مئات المقالات التى أفاضت فى وصف الجنازة وكل

(١) كتاب رائد الفكر المصرى محمد عبده . تأليف د . عثمان أمين وتصدير عاطف العراقى . المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٦ م ، ص ٤٨ .

أحداثها التفصيلية . وسنختار مجرد أمثلة ، أقول مجرد أمثلة ، لأننا نجد مئات الصفحات التى كتبت بالصحف وغيرها ، وبرقيات جاءت من أكثر دول العالم تحمل الخبر الحزين . والمزيد من التفصيلات نجده بصورة شاملة فى تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا .

وإذا كنا سنبدأ بإيراد ما ورد عن وفاته بجريدة «الشرق» ، فإن سبب ذلك أن هذا التأبين قد عرض لأبرز معالم حياة الفقيد الإمام محمد عبده ..

جاء تأبين جريدة «الشرق» على النحو التالى[1] :

ولد الفقيد الكريم من أبوين فقيرين من أهالى محلَّة نصر بالغربية ، كان يُضرب بهما المثل فى الورع والشهامة وإكرام الضيف حتى كان بيتهما بغير باب ، وكان الأستاذ يفتخر بذلك كثيراً ، ومما يؤثر عن كرمهما أن ضيفاً وفد عليهما صباح يوم ولم يكن عندهما شىء من الزاد لفقرهما ، فقدَّما له اللبن الذى كان مُعدًّا لغذاء الفقيد وهو صبىٌّ فى المهد ، فأمضى الفقيد نهاره جائعاً باكياً .

ولد رحمه الله عام ١٨٤٥م ، فلما بلغ السابعة من عمره ظهرت عليه علائم النجابة والذكاء ، فلم يشأ أبوه له أن يكون فلاَّحاً كإخوته ، بل شاء أن يعلِّمه ، فأدخله إلى كُتَّاب فى القرية فاختلف إليه الفقيد مكرهاً ولم يدع أحداً من أهل القرية إلا توسَّل به إلى أبيه أن ينظمه فى سلك إخوته فلاَّحاً ، فكان يأبى عليه ذلك ويصرُّ على تعليمه إصراراً ، وكانت النتيجة من هذا وذاك أن الفقيد لبث بهذا الكُتَّاب ثلاث سنين لا يحفظ مما يُلقى الفقيه حرفاً .

وفى عام ١٨٤٨م أدخله أبوه الجامع الأحمدى ، فلبث به ثلاث سنين أخرى كانت النتيجة منها مثل الأولى ، فلما أعيا أباه أَمْرُهُ أرسله إلى الجامع الأزهر فمكث فيه عامين ولا يدرى مما يُلقَّن شيئاً .

قال الأستاذ فى تعليل ذلك : إن الذى كان يعوقنى عن تفهُّم المقصود من هذه

(١) تاريخ الإمام محمد عبده لرشيد رضا ، وراجع أيضاً النصوص التى أوردناها فى الكتاب التذكارى الذى سبق أن أشرنا إليه عن الشيخ محمد عبده ، ص ٣٧٠ وما بعدها .

الشروح والمتون ثلاثة أمور : الأول رغبتى فى أن أكون مثل إخوتى فلاَّحاً ، وعدم وجود الوسائل التى ترغِّبنى فى العلم ، والثانى اختلال نظام التدريس ، بحيث كنت أسمع الشيخ وهو يدرس فأحسبه يتكلم بلغة أجنبية . والثالث ما اتفق عليه الطلبة من مضايقة بعضهم بالأغذية الضارة مما يكون منه اعتلال الجسم والفكر معاً . فلما لم يجد الأستاذ مناصاً من إرادة أبيه خلا بنفسه واجتمع بفكره وذكائه فهان الأمر بعد ذلك عليه ، وأصبح ما يحصِّله فى يوم واحد من هذه الدروس المعقَّدة المشوَّشة مثلما يحصِّله سواه فى عام أو عامين . ومما يروى عن ذكائه أنه لم يمر عليه شهر فى درس كتاب الكفراوى فى النحو ، حتى بدا له شىء من غلط الكتاب وتناقضه فى بعض المواضع ، فنبَّه شيخه إلى ذلك فاعترف معه به ، ولكنه قال : إنما ندرِّس الكتاب تبرُّكاً .

ثم جاء السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر ، فاجتمع به الفقيد وأخذ عنه كثيراً من فلسفته وعلمه ، وكان السيد جمال الدين يقول عنه إنه أنجب تلاميذه ، وإنه لمصر أقوى من أسطول وأعز من جيش . ولبث السيد جمال الدين بمصر عشر سنين فكان فقيدنا ساعده الأيمن ، لا يكتب السيد موضوعاً علمياً إلا بروح الفقيد وقلمه ، ولا يجادل جدالاً فلسفياً إلا كان فيه شىء من ذكائه وفكره. ولما طُرد السيد جمال الدين قال وهو فى سجن السويس منتظراً الباخرة التى تحمله منفياً : إنى تركت الشيخ محمد عبده ، وكفاه لمصر عالماً .

وكانت أولى الوظائف التى تولاها الفقيد رحمه الله تحرير «الوقائع المصرية» ، وكانت فى عهده آية الإعجاز فى الإنشاء ، ثم عُيِّن مديراً للمطبوعات المصرية . ولما عُزل المغفور له إسماعيل باشا ، وتولَّى رئاسة النظار دولتلو رياض باشا ، قرَّب الفقيد إليه ، واتخذه مستشاراً . فالذى تراه الآن من آثار رياض باشا الحسان إنما هو من فكر الأستاذ رحمه الله ، حتى كان ما كان من تلك الثورة العرابية ، فبذل جهده فى إقناع أهلها بسوء عاقبتها حتى هَمُّوا كثيراً بقتله ، وهو مع ذلك لم ينفكّ عن النصح والإرشاد ، ومما يرويه التاريخ دليلاً على جهل

الذين قاموا بهذه الثورة ، وعلى بعض ما بذله الفقيد من العناء فى سبيل الإقناع ، أنه لما جاء الأسطولان الإنجليزى والفرنسى إلى مياه الإسكندرية ، اجتمع الثائرون فى منزل عرابى يضحكون من أوربا ، ويهزأون بقواتها ، فوقف الأستاذ خطيباً فيهم ، وعرَّفهم ما هى أوربا ، وما هى إنجلترا وفرنسا، وما هى قواتهما البرية والبحرية ، فقاطعه عضوان من أعضاء مجلس النواب حينئذ ، وهما عبد المجيد بك البطاش العضو النائب عن الإسكندرية وسائر الثغور المصرية ، والسيد أحمد محمود النائب عن مديرية البحيرة ، وقالا إن أهالى السيَّالة وأبى حمص وحدهم لَيقاومون قوات الدولتين اللتين تذكرهما ، فاخرجْ من مجلسنا أو قتلناك صبراً .

ثم هدأت الثورة بعد الاحتلال ، فاتُّهم الفقيد ظلماً أنه كان من رجالها ، فنفى إلى الشام ، فلبث فيها عاماً ، ثم دعاه السيد جمال الدين الأفغانى إلى مدينة باريس، فأصدرا بها جريدة «العروة الوثقى» ، ثم عاد الفقيد إلى مصر بعد أن تبينت براءته للحكومة المصرية ، فَعُيِّنَ قاضياً جزئياً فى المحاكم الأهلية ، ثم مستشاراً فى محكمة الاستئناف ، ثم عُيِّنَ مفتياً للديار المصرية ، فكان فى جميع الوظائف التى تقلَّدها بحراً من العلم والفضل .

أما أعماله النافعة فكثيرة لا يحيط بها بيان ، نذكر منها تدريسه القرآن الشريف بما لم يسبقه إليه أحد ، حتى كان شرحه له وتفسيره شرحاً علمياً عصرياً خالياً مما حشاه السابقون . ومنها أعماله فى مجلس الشورى ، وهى كل حسناته وغاية غاياته . هذا عدا الإفتاء والتآليف التى منها «رسالة التوحيد» الشهيرة ، وتفسير جزء عمَّ ، و«الرد على الدهريين»[1] . ولم يقف عند هذا الحد - رحمه الله - من الأعمال النافعة ، بل وجَّه نظره الشريف إلى الأزهر ، فأصلح ما قدر على إصلاحه. وكان - والمرض يساوره - يشتغل بمشروع تخريج القضاة الشرعيين، ثم إنه كان فوق هذا الإشغال الكبير يكاتب المجلات بأعظم الموضوعات

(١) هذا الكتاب ليس من تأليف الشيخ محمد عبده ، وإنما هو من تأليف جمال الدين الأفغانى ، وترجمه الإمام محمد عبده من الفارسية .

الأدبية والعلمية مما كان له شأن كبير فى العالم كله . نذكر من ذلك رده على المسيو هانوتو ، وعلى بعض مقالات ظهرت فى الجامعة ، وله - عدا ذلك كله - مساعٍ مشكورة وأعمال إنسانية انتفع بها خلق كثير هم الآن يبكونه معنا ويذوبون عليه حزناً .

هذه أعماله إجمالاً ، أما أخلاقه فأخلاق عمر ؛ إنه كان حكيماً واسع الصدر ، كريم النفس إلى درجة متناهية ، فما قَصَدَهُ ذو حاجة إلا سعى لها سعيها حتى يقضيها له، وما أساء إليه إنسان إلا اجتهد أن يقابل الإساءة بالإحسان .

نذكر من ذلك أن السيد عبد الرحيم الدمرداش جاءه يوماً فقال : يا أستاذ إن عدوك فلاناً حقد علىَّ لقربى منك ، فهو ساعٍ للإيقاع بى . فأجابه المرحوم : اصبر علىَّ إلى غدٍ . وإن الرجل فى منزله الساعة الحادية عشرة إذا الأستاذ يطلبه بالتليفون ، فلما رآه قال: إنك أوجدت فى نفسى شيئاً من الذى شكوته إلىَّ ، ولم أتعوَّد أن أبيت ليلة وفى نفسى السوء لأحد .

ومنها أن دولة البرنس سعيد حليم زاره فى مرضه الأخير غير مرة ، فكان يلحُّ عليه الأستاذ - رحمه الله - أن يعطى للعلماء استحقاقاتهم ، مع أن علماء الأزهر - كما نعرف - عاكسوا الشيخ وحاربوه بكل سلاح .

ولقد كان أنجال المشايخ فى الأزهر يتناولون مرتبات آبائهم بالوراثة ، فرأى الأستاذ فى ذلك غبناً للعلماء ، لأن هذه المرتبات إنما هى وقفٌ عليهم ، فأعاده الأستاذ إليهم وعوَّض أنجال المشايخ عنها بما كان يجمعه هم بسعيه فى رأس كل شهر من أموال محبيه .

ولقد شوهد وهو ساعٍ هذا السعى عقب اعتزاله الأزهر وقيام الشيوخ فى وجهه محاربين . فأَعْظِمْ بهذا كرماً وحلماً .

ولقد كان - رحمه الله - وطنياً بحقيقة معنى الوطنية ، وكان لا ينى له عزمٌ فى كل أدوار حياته عن ترقية الأمة وإصلاح شؤونها ، وإنا رأيناه فى مرضه فما سمعناه يذكر عن مرضه شيئاً ، وكأنه غير مريض ، وما سمعناه إلا محدِّثاً بأحسن المواضيع النافعة للأمة والبلاد . وله حسنات غير ذلك كثيرة لا تحصى

ولا تُعَدُّ ، وهى تدل على أن الرجل كان كبير الهمة واسع العلم شديد الغيرة على الأمة والبلاد .

هذا ما نجده فى جريدة «الشرق» ، أما بالنسبة لجريدة «الأهرام» الصادرة بتاريخ ١٣ يوليو ١٩٠٥ م، أى: بعد وفاة الفقيد بيومين ، فإننا نجد ما يلى[١] :

موت المفتى الشيخ محمد عبده . البقاء لله وحده : مصباح أضاء فى عالم الأدب والفضل والعلم ٢٧ سنة ، ثم انتابته الأسقام منذ أربعة شهور حتى أطفأت منه فى الساعة السادسة من مساء أمس نوراً ساطعاً كان يضؤل يوماً فيوماً بضؤول جسمه، والناس تروع فى كل صبح ومساء بقرب انطفائه وساعة إظلامه . ولقد كان تَسَقُّطُ الأخبار عن صحة الشيخ محمد عبده فى هذا الأسبوع وما قبله الشطر الأكبر من مشاغل الأمة المصرية ، لأن الشيخ محمد عبده رجل «والرجال قليل» فتم انطفاؤه أمس فى منزل صديقه محمد بك راسم فى رمل الإسكندرية بعد آلام تحمَّلها بالصبر والجلد ، فلم تهدم عزيمته قبل انهدام بنيته ، ولم تُضع رشده وإرشاده قبل أن تضيع نسمة الحياة منه .

فمات الشيخ الكبير والأستاذ النحرير والعالم الشهير ، مفتى الديار المصرية ..

وكلُّ ابنِ أُنثى وإنْ طَالَتْ سَلامتهُ يوماً على آلــةٍ حَدْبـاءَ محمـولُ

فطار نعيه بعد آخر نفس لفظه إلى جميع أنحاء البلاد ، فعرفت مصر أنها خسرت رجلاً عظيماً مقداماً عالماً عاملاً ، وتردد عليه الأسف من كل لسان ، ووقف الجميع مكلومى الأفئدة وأنظارهم موجهة إلى تلك الجثة الخامدة، وقد كانوا يختلفون إليه وهو حىٌّ ، فهم مجمعون الآن وهو ميت على أن المصاب به مصاب أليم ، والخسارة بموته خسارة قد لا تعوَّض - والمرء مذكور بحسناته - بل كيف لا تكون الخسارة كبيرة وقد كان فى الشورى صاحب الفكر النَّقَّاد والرأى الصائب المقدَّم على كل رأى ، وفى اللجنة التشريعية صاحب المقام الأول ، وفى المجلس الأعلى للأوقاف الهادى المرشد ، وفى الجمعية الخيرية

(١) تاريخ الإمام محمد عبده لرشيد رضا ، وأيضاً الكتاب التذكارى الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٩٥م.

الإسلامية الرئيس المُحيى ، وفى مجلس إدارة الأزهر المصلح الهادى ، وفى عالم الأدب العَلَم الذى يشار إليه بالبنان ، وفى إصلاح المحاكم الشرعية والأهلية العامل المجدّ العاقل ، وفى كل أمر كبير الرجل المقدَّم المفضَّل ، فلا يتم فى مصر عمل كبير إلا ويده فيه قبل كل يد ، وسعيه فيه قبل كل سعى ، فإذا كان اختلافٌ فى سياسته بدءاً أو نهاية فلا خوفٌ فى فضله وعلمه وجِدِّه ، وقد عرك السياسة دهراً طويلاً حتى سمعناه فى الأيام الأخيرة يردد عبارة مأثورة عنه : « ما دخلت السياسة عملاً من الأعمال إلا أفسدته » .

ثم ذكرت «الأهرام» مجملاً من تاريخ حياته ، نذكر منه هذه الكلمة عن شأنه فى الثورة العرابية .. قالت :

وفى سنة ١٨٨١م بدأت الحوادث العرابية فتولى الفقيد رئاسة المطبوعات ، وعلت منزلته حتى قيل إن العرابيين كانوا لا يبرمون أمراً دون استشارته وكان الفقيد ينكر كثيراً من أعمالهم وهو الذى حَمى سراى رياض باشا وقتئذ .

ثم قالت : للفقيد آثار أدبية كثيرة تتداولها الأيدى وترددها الألسن والأقلام، ويضيق عن ذكرها المقام ، وجُلُّ آثاره الدينية تفسير القرآن وتطبيق العلم على الدين ، وهو مطلب صعب نسج فيه على منوال علماء الدين فى أوربا رداً على الدهريين الذين يتهجمون على الدين بالعلم ، ولقد نقل إلينا أحد مريديه أنه نظم على فراش الأسقام فى الإسكندرية قصيدة منها قوله :

ولستُ أُبالى أن يُقالَ محمَّدٌ ... أَبَلَّ[1] أو اكتظَّتْ عَليهِ المَآتِمُ
ولكنَّ دِينًا أردتُ صَلاَحَهُ ... أُحَاذِرُ أَنْ تَقضى عَليهِ العَمَائِمُ
وللنَّاسِ آمَالٌ يَرْجُونَ نَيْلَهَا ... وإنْ متُّ ماتتْ واضْمَحَلَّتْ عَزَائِمُ
فيَا ربُّ إنْ قَدَّرْتَ رُجْعَى قريبةً ... إلى عَالَمِ الأرواحِ وانْفَضَّ خَاتِمُ
فَبارِكْ على الإسلامِ وَارْزُقْهُ مُرْشِداً ... رَشِيداً يُضيءُ النَّهْجَ والليلُ قَاتِمُ

(١) شُفى من مرضه .

ثم ذكرت ما تلقته بالتليفون من الإسكندرية عن كيفية الاحتفال بالجنازة فيها ، وفى اليوم التالى نشرت لمُكاتبها فى الإسكندرية فى ذلك ما نصه :

مشهد الإمام : ابتلى الله مصر ، بل الإنسانية ، والضمائر الحرة والعلم والدين الصحيح بداهية تصفرُّ منها الأنامل، فقدت مصر بعد ظهر أمس كبير أئمتها ورئيس الإفتاء فيها وأحد علمائها الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبده ، فلما وقع القضاء واستردَّ الله وديعته فطارت فى نحو الساعة الخامسة بعد الظهر تلك النفس الكبيرة إلى بارئها ، انتشر الخبر فى الرمل والإسكندرية انتشار البرق ، ووقع فيهما وقوع الصاعقة ، لأن الناس – على توقُّعهم لهذه الفاجعة – كانوا يحسبون بِنْيَةَ الأستاذ رحمه الله تسمح للرجاء أن يبقى وطيداً بأن يكون يوم نعيه بعيداً، فخاب الرجاء ، وما هى بأول مرة يخيِّب الدهر فيها الرجاء .

ولما كانت الساعة العاشرة من صباح اليوم ماجت «محطة الرمل» فى الإسكندرية بالمئات والألوف من الجنود والعساكر من البوليس والبحارة وتلامذة المدارس والمشيِّعين من موظفى الحكومة وكبار العلماء والذوات والأعيان من كل عارف بفضل هذا الفقيد العظيم ، معترف به ، ثم جىء بالجثة من الرمل يحفُّها الوقار والهيبة والاحترام ، فحُمل النعش على أكتاف الرجال ، وتألَّف موكب الجنازة فسار فى المقدمة العساكر والجنود والبحَّارة وتلامذة المدارس ، وكان يتقدم النعش ويحيط به عدد من خيَّالة البوليس والسيوف مشهورة فى أيديهم ، ويتلوه رجال الحكومة وموظفوها وفى جملتهم عطوفتلو فخرى باشا ، وعبانى باشا ، وبينهما صاحب الدولة رياض باشا ثم مظلوم باشا وأرتين باشا وغيرهم من كبار الموظفين وأصحاب المناصب السامية ، وكل ذى مقام ورتبة فى المدينة ودلائل الأسف والحزن الشديد بادية على كل وجه .

وسار الموكب على هذا النظام من محطة الرمل إلى شارع النبى دانيال إلى محطة الباب الحديد ، فأُودع النعش فى المركبة المخصصة لنقله إلى القاهرة حيث المشهد الكبير الرسمى .. رحم الله الفقيد العظيم، وألهم حضرات ذويه ومحبيه وعارفى فضله الصبر الجميل على فقده .

ثم قالت فى الأخبار المحلية من هذا العدد ما نصه :

جنازة المفتى الشيخ محمد عبده : فى الساعة الرابعة تماماً سارت الجنازة من محطة مصر على النظام الذى كان يشور به الفقيد استناداً على قوله « إكرام الميت بدفنه » فسار فى مقدمة الموكب فرسان البوليس بقيادة اثنين من ضباطهم ، ويلى الفرسان فرقة من مشاة البوليس بقيادة أربعة من ضباطهم ، ويليهم نعش الفقيد محمولاً على الأكتاف وهو مغطّى بشال من الكشمير وإلى جانبه الأيسر شقيق الفقيد حمودة بك عبده مع بعض الأصدقاء ، ووراءه شقيقاه الآخران ، وبينهما صديقه الحميم ورفيقه وزميله فى كل أدوار حياته العلمية والسياسية الشيخ عبد الكريم سليمان . فالجنازة الحقيقية كانت مؤلفة من النعش وحامليه والمحيطين به. أما الجنازة الرسمية فكانت مؤلفة من البوليس الماشى أمام النعش فرساناً ومشاة . ومن الذين يسيرون وراء النعش فضيلة قاضى القضاة يحيى أفندى ، ووراءه قضاة المحاكم الشرعية ، وفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الشربينى شيخ الإسلام، ووراءه شيوخ إدارة الأزهر والأروقة ، ثم جمهور كبير من العلماء الأعلام من شيوخ أحنى الدهر صعدتهم ، وكهول تُجِلُّ الأمة قدرهم وعلمهم ، وشبَّان غُذِّيت عقولهم بعلوم الفقيد ودرسه . وكان عدد العلماء وطلاب العلم الذين يسيرون وراء النعش نحو ثلاثة آلاف شخص على أقل تقدير ، ويليهم مستشار الداخلية المستر ميتشل ، ووراءه رؤساء أقلام الداخلية والمالية ، وجناب اللورد سيسل وكيل حكومة السودان ووكيل نظارة الحربية ، ووراءه الضباط الكبار ورؤساء أقلام الحربية والسودان ، ووكيل محافظة مصر وحكمدارها ورئيس الضبط وكبار العمال والكولونيل كولفيل قائد جيش الاحتلال ، وقنصل جنرال دولة إيران ، ومدير الصحة ، وسعادة حسن باشا عاصم وكيل الجمعية الخيرية الإسلامية التى كان الفقيد رئيسها ، وكبار عمال ديوان الأوقاف ، وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية... إلخ . ويليهم سعادة ناظر الحقانية إبراهيم باشا فؤاد ، وسعادة وكيل الحقانية إسماعيل

باشا صبرى ، والمستر برونيت نائب مستشار الحقانية وصفوت بك الأفوكاتو العمومى ، ووراءهم حضرات قضاة المحاكم الأهلية ومستشارى الاستئناف بأزيائهم الرسمية التى يرتدونها فى إبان عقد الجلسات ، ورجال النيابة ، وحُجَّاب المحاكم ، ويليهم طائفة المحامين أمام المحاكم الأهلية وهم يتَّشحون أرديتهم السوداء الضافية، ويليهم جمهور لا يدرك الطرف آخره من كبار الأمة وأعيانها وأدبائها وأفاضلها . وكان البوليس واقفاً على ممر الموكب من محطة مصر حتى الأزهر بقيادة ضباطه لحفظ النظام ، فكان كلما تقدَّم الموكب زاد عدد المشيعين ، حتى إذا ما دخلت الجنازة الموسكى أقفلت المخازن الكبيرة أبوابها ، ووقف التجار أمام مخازنهم للاشتراك فى المأتم ، ووقفت قطارات الترام نحو ساعة حتى لا تُقلق الموكب فى سيره .

فلما وصلت الجنازة إلى الأزهر أذَّن المؤذِّنون من كل المساجد دفعةً واحدة ، فزاد الخشوع والعبرة فى جنازة كبيرة لم تر مصر أكبر منها لاشتراك الشعب كله بجميع طوائفه بها ، ولم تُسمع فيها ضجَّة الفقهاء والعميان ، ولكن ذلك السكوت الذى كان سائداً كان أدعى إلى العبرة وأظهر لهيبة الموت وأوعظ للنفس .

وبعد الصلاة على الجثة فى الأزهر انتظم المشهد ثانية ، وسار إلى قرافة المجاورين حيث ألحدوا الفقيد ، ولم يُسمع بعد إضراحه ودفنه إلا صوت واحد لأحد الشعراء ، إذ قال وهو ينظر مودعاً ذلك القبر :

قَدْ خَطَطْنَا للمَعَالى مَضْجِعَا ودَفَنَّا الدِّينَ والدُّنْيَا مَعَا

ولم تقم ليالى المأتم عملاً بوصية الفقيد وآرائه. فنسأل الله أن يجزل ثوابه ، وأن يلهم آله وذويه وأصدقاءه وأمته - بل كل مصر - عزاء عنه ، وأن يرزقها من أبنائها خلفاً له .

وذكرت فى مكان آخر من هذا العدد ما نصه :

عن موت المفتى : مات الشيخ محمد عبده مفتى مصر أول أمس وورد

«تلغراف رويتر» بأن السير ويليام موير مات أول أمس أيضاً ، والسير ويليام موير رجل من كتاب الإنجليز ، كان فى كتاباته وأقواله أعدى عدو للإسلام ، كما كان يعد الشيخ محمد عبده أكبر مدافع عن الإسلام . وورد من بلجيكا خبر وفاة الدكتور سيدناوى سميث الثرىّ الأمريكى أصدق صديق للإسلام ومن أكابر أصدقاء الشيخ محمد عبده . وحدثنا أحد أفاضل الإيرانيين بأن فلكياً مصرياً تنبأ بوفاة المفتى فى هذا العام فى نتيجة فلكية تُعرف بنتيجة الزرقاوى ، وقد طبعت منذ ثمانية شهور فأخذنا تلك النتيجة الصغيرة ، فإذا فيها أقوال على شكل القصيد ، فيها هذان البيتان :

أَلَا يا رحمةَ الرحمنِ صُبِّى ... على قبرٍ حَوَى روحَ الإمَامْ

ويا ذا الأزهرِ اندبْ لَيْثَ غابٍ ... فَمَنْ يُفْتِى إذا الأستاذُ نَامْ ؟

والمتعارف بين الكُتَّاب الوطنيين أن المفتى كان يُعرف بينهم بلفظة الإمام وبالأستاذ الحكيم .. فما أعجب الصدف .

أما جريدة «البصير» فى عددها ٢٣٧٣ الصادر ذلك اليوم ، فقد قالت ما يلى:

رزء عظيم : تحزن البلاد المصرية فى هذا اليوم ، بل العالم العربى بأسره ، حزناً شديداً لوفاة العلاَّمة المفضال الشيخ محمد عبده مفتى القطر الذى عُرفت روحه الطيبة بقدر عزتها ووجوب بقائها ، فأقامت مدة تتردد منه بين السحر والنحر حتى غلبها قضاء بارئها استردها منه معطيها ، فراح تندبه الصحائف والأقلام ، وتنوح عليه صحة المدارك والأفهام ، وتأسى على عمره بواقى الأيام.

ألـمَّت بهذا الفقيد الحميد علة ما كان أحد يتوقع أنها تفضى إلى هذه النتيجة المحزنة ، وقد جاء من أجلها إلى هذا الثغر فعالجه فيه نطس الأطباء فما أغنى علاجهم شيئاً ولا دفع طبهم مقدوراً ، فمات منتزعاً من بين آمال ألوف كانوا يرجون له طول البقاء وامتداد الأجل ليستفيدوا من إصلاحه ويستنيروا بإرشاده ، لأنه رحمه الله كان فى مقدمة العاملين على إصلاح شؤون المسلمين بالخصوص وسائر بنى الشرق بالعموم ، ولهذا يعد فقده خسارة حقيقية لو يدرى الغافلون .

ومصيبةٌ حملَ الخليفةُ شَطْرَها والمسلمونَ وشَطْرَها الإسلامُ

أما الشيخ محمد عبده ، من جهة إصلاحه الدينى والدنيوى فمشهور جداً ، حتى يمنع اشتهار أمره عن ذكره ، ثم هو مشهور أيضاً بالبلاغة والفصاحة وحسن الإنشاء والترسُّل وصحة الإدراك وسلامة الذوق ، وله من قلمه على ذلك أدلة كثيرة وشواهد عديدة، حتى أنه لو لم يكن يشغل منصب الإفتاء لكان يشغل أسمى مركز بين أُولى الآداب وحملة الأقلام ، ولهذا يندبه المستهدون والمسترشدون ، ويتطلعون فيرون قد بكى بكاءهم الكاتبون والمتأدبون ، وناح نواحهم الشعراء المجيدون . ذلك هو الشيخ محمد عبده الذى فيه يمترون ، نسأل الله تعالى أن يتولى روحه الطيبة بإحسانه وكرمه ، فلقد كان محسناً كريماً، وأن يتغمده بفضله ورحمته ، فلقد كان فاضلاً رحيماً ، ولا نسأل لقومه الكرام وحدهم الصبر والعزاء ، فإننا قد غدونا جميعاً فى المصيبة شركاء ، وقد تقاسمتها الأقطار العربية بالسواء ، وتألمت لها جميع المذاهب والأديان ، إذ ليس للفضل الصحيح مذهب ولا انتماء .

أما مشهد دفنه فقد كان نادر المثال ، حيث حُمل من رمل الإسكندرية على الكهرباء يصحبه المئات من ذوى الوجاهة ، ولم يبلغ محطة الإسكندرية حتى توقف السكان جميعاً فى محطتها وفى مقدمتهم عطوفتلو فخرى باشا قائمقام الخديوى ونائب رئيس النظار مع حضرات النظار ، ودولتلو رياض باشا ونجله محمود باشا ، ورئيس محكمة الاستئناف الأهلية ، وقضاة محكمة الثغر الأهلية بشارة المحكمة الرسمية ، إذ كانت قد أُوقفت الجلسة حداداً عليه ، ثم سعادة ناظر الأوقاف ، ووكيل نظارة المعارف ، ووكيل حضرة اللورد كرومر ، وبعض مستشارى محكمة الاستئناف المختلطة وغيرهم من كبار رجال الحكومة ، وفضيلة علماء الإسكندرية وقاضيها ، وجميع علمائها الأفاضل ، وكل ذى مقام محترم فى الإسكندرية ، عدا كبار القوم الذين حضروا من العاصمة وسائر جهات القطر لوداع الفقيد الوداع الأخير ، فحُمل نعشه المجلَّل بالكشمير

الثمين على أكتاف القوم يتقدمه بعض رجال البوليس بين خيَّالة ومشاة ، ومن ورائه شقيقاه الأسيفان وسائر هذا الجمع الذى يعد بالألوف بين صفين من العساكر ورجال البوليس وأولاد المدارس من شارع الرمل فشارع النبى دانيال فشارع محطة مصر حيث أُودع نعشه عربة خصوصية وأخذ المشيعون يذرفون الدموع ويعزُّون بعضهم بعضاً على هذا المصاب الأليم ، ثم تفرَّقوا آسفين ، وقد شَيَّع الفقيد إلى العاصمة وفد مؤلف من٦٠ وجيهاً من وجهاء الإسكندرية يتقدمهم شيخ علماء الثغر والقاضى وبعض العلماء الكرام ... إلخ .

أما جريدة «الشرق» فى عددها رقم ٥٥٠ الصادر يوم الأربعاء ١٢ يوليو ، أى : فى اليوم التالى مباشرة ، فقد كتبت تقول[١] :

الإمام الحكيم: ودَّعناه : ودَّعناه وقد نال منه المرض وأطبق عليه الموت وأذابت كبده الأوجاع والآلام ، فلا واللهِ ما وجدنا مثل وجهه إشراقاً .

ودَّعناه والذى أصابه لو نزل بالدنيا لكانت كلها دمعاً ودماً ، فما سمعنا للإمام الحكيم توجُّعاً ولا أنيناً ، وما وجدناه إلا شجاعاً بطلاً .

أخذ سقراط كأس السم فشربه مبتسماً ، فقالوا مات سقراط كريماً ، وإنما أخذ سقراط السم مكرهاً فقضى عليه قضاءً محتوماً .

وأخذ الإمام الحكيم كأس الهَمِّ من الأزهر ، لم يحكم عليه بها من شعب ولا من حكومة ، ولم تُقدَّم له إلا من يد أثيمة ذميمة ، فكان وهو يجود بنفسه الكريمة يستغفر للذين قاتلوه ، ويشفع لهم عند الذين أحبوه وأكرموه ، فالإمام مات كما عاش كريماً حكيماً . نعم مات الإمام ، مات العلم والعمل والهمة والإقدام . مات الأستاذ الأعظم والمصلح الأكبر الشيخ محمد عبده فانطفأت بموته أشعة العلم والذكاء ، وباتت من بعده سوداء ظلماء ، نبكى الإمام الحكيم ما ذكرناه ، ونبكى مصر ما بكيناه ، إن حزننا عليك يا إمام المسلمين وكبير المفكرين ، لتهون فى جنبه جميع الأحزان ، وتخفُّ بإزائه كل مصائب الإنسان .

(١) راجع كتاب « تاريخ الأستاذ الإمام » لرشيد رضا .

نشفق على مصر لأنها فقدت بموت هذا الإمام أغلى درة فى تاج الإسلام ، نشفق عليها لأنها فقدت الرجل الذى قال عنه وكيل فرنسا السياسى فى الجزائر سابقا إنه لو كان فى المسلمين عشرون شيخاً مثل الشيخ محمد عبده لاعتزّ الإسلام جانباً وكبر شأناً ولرضيته لى ديناً .

أضعناك يا أستاذ وأىُّ رجل أضعنا، أضعنا النفس الشريفة والروح العالية ، أضعنا الذى كان يخرج من منزله فى كل صباح وفى جيبه بيان حاجات الناس ، فلا يبرح عن سعيه هنا وهناك حتى يقضيها ، ثم يعكف على خدمة الجمهور ، فينسى نفسه بها ، ويُفنى حياته فيها .

أيها الإمام إنك قد مت شهيداً ، ولكن يكفيك أنك قد حاربت الجهل وخدمت الأمة ، فأنت تغيب اليوم فى السماء مستريحاً ، فيا رجيم الخطوب إن أُفق العُلَى بغير شهاب ، ويا فقيد العلم والآداب لقد شقَّت عليك مرائر العلم والآداب ، ويا من حملوك على الرقاب لقد كان فضلك طوقَ الرقاب .

عَلَيكـمْ سَلامُ اللهِ ما ذُكِرَ اسْمُكُمْ وذلكَ بينَ الـنَّـاسِ آخِـرُهُ النَّـشْرُ

لبَّى دعوة ربه فى الساعة الخامسة من مساء أمس ..

فَسَاوَى قلوبَ الناسِ فى الحزنِ رُزْؤُهُ فلم يخلُ مِنْ ذاكَ الصَّعِيدُ ولا مِصْرُ

وقد أحاط به الآسون يبغون طبه ، وراموا بأنواع العقاقير بُرْءَهُ ، فلم تنجع فيه حيلة ، وكانت وفاته بعلة استحكمت من مدة طويلة ، وهى تورم فى الكبد طغى على البطن بكبر حجمه ، واختلطت علَّته بالدماغ بسبب تسمم الدم بما يسمونه « اسيد تونومى » أى: العلَّة الخلية ، فأُصيب بالسهو والغيبوبة العصبية .

ولما فاضت روحه الكريمة أسرع عطوفة وكيل قائمقام خديوى إلى نعيه للجناب العالى فى ديفون ، ثم عقد مجلس النظار فى سان ستيفانو للمداولة فيما يجب اتخاذه من التدابير لتشييع الجنازة فى الإسكندرية ومصر ، وحضر جناب وكيل المالية خصيصاً لحضور هذه الجلسة ، فتقرَّر أن تكون النفقات على الحكومة ، وأرسل عطوفة وكيل قائمقام خديوى رسائل برقية إلى محافظ

العاصمة لاتخاذ التدابير التى تقررت فى جلسة النظار وللتحتيم على جميع موظفى الحكومة لحضور تشييع الجنازة ، وأرسل الأوامر إلى المديرين لاستقبال الجثة فى المحطات التى تمر بها مع عمد البلاد ومشايخها .

وفى الساعة العاشرة من صباح اليوم وصلت الجثة من الرمل إلى الإسكندرية، فشيعت إلى محطة مصر من شارع المسلَّة إلى شارع النبى دانيال فالمحطة بموكب حافل مهيب يتقدمه ثلة من فرسان البوليس فتلامذة مدرسة الشيَّالين ، ففرقة من البوليس المشاة ، ثم النعش يتقدمه إخوة الفقيد وأصهاره ، ويتلوه عطوفة فخرى باشا بالنيابة عن الحكومة المصرية ، ودولة الوزير الخطير رياض باشا ، ثم أصحاب العطوفة والسعادة عبانى باشا ومظلوم باشا ويعقوب باشا أرتين وعبد الحليم باشا عاصم وإبراهيم باشا نجيب وصالح باشا ثابت وجميع رجال القضاء الأهلى والشرعى والعلماء وغيرهم من كبار رجال الأمة وجميع أعيان الإسكندرية تسير وراءهم جموع لا تحصى . وكان يسير على جانبى الموكب جميع تلامذة مدارس العروة الوثقى ، وجنود خفر السواحل ، وفى آخر الموكب فرقة ثالثة من فرسان البوليس حتى وصلوا إلى المحطة ، فنقلت الجثة إلى قطار خاص سار بها إلى العاصمة ، وكان يتولى إدارة الموكب وكيل المحافظة .

وقد ورد إلى شقيقه حمودة بك عبده كتاب من متولى أعمال الوكالة البريطانية أعرب فيه عن أسفه بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن جناب اللورد كرومر ، وأصدر سعادة ناظر الحقانية أمره إلى قضاة المحاكم الأهلية والمحامين أن يشيِّعوا الجنازة بكساويهم الرسمية .

ونقول هذه الكلمات الحزينة الصادقة التى ذكرنا أمثلة قليلة جداً منها ، والتى إن دلتنا على شىء ، فإنما تدلنا على المكانة السامية للشيخ فى قلوب الناس حكاماً ومحكومين . لقد كان شعلة مضيئة فى سماء مصر والعروبة.

هذا عن وصف الجنازة ، وكما رأينا فإن بعض الجرائد المصرية والعربية قد ذكرت كل تفاصيل الجنازة التى بدأت بالإسكندرية ، ثم انتقال الجثمان إلى

القاهرة ، وبعضها الآخر قد ذكر عرضاً موجزاً لإنجازاته الهائلة طوال حياته ، وذلك قبل عرض تفاصيل سير الجنازة .

أما الكتابات أو الشهادات التى ذكرها كبار القوم من المفكرين ورجال السياسة ، سواء كانوا من المصريين أو العرب أو من البلدان الأجنبية ، فإنها تعد بالمئات ، ولكنها تُجمع على المكانة الفريدة السامية التى احتلها الشيخ محمد عبده فى عقول الناس وقلوبهم وأفئدتهم . وكانت أغلب الكلمات كلمات موضوعية عادلة منصفة ، وقد وردت مئات الكلمات - كما قلنا - فى تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده لرشيد رضا ، والذى يعد كما قلنا موسوعة شاملة عن حياة محمد عبده وأفكاره لا غنى عنها من قريب أو من بعيد . هذا بالإضافة إلى حفلات التأبين التى أقيمت وتحدث فيها العديد من تلاميذ الفقيد وعارفى فضله .

ونكتفى بمجموعة قليلة جداً من شهادات رجال عصره ، وقد وردت هذه الشهادات أو أكثرها فى المجلد الأول من تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا[1].

(١) كلمة ماكولم مكاريث مستشار الحقانية بمصر :

نوَّه جناب المستشار فى تقريره عن تلك السنة بما كان من خدمته الثمينة لوزارة الحقانية فى كل ما يتعلق بالشريعة الإسلامية ومحاكمها ، ثم قال : وكانت آراؤه على الدوام فى المسائل الدينية أو الشبيهة بالدينية سديدة صادرة عن سعة فى الفكر ، كثيراً ما كانت خير معوان لهذه النظارة فى عملها ، فوق ذلك فقد قام لنا بخدمات جزيلة لا تُقدَّر فى مجلس شورى القوانين فى معظم ما أحدثناه أخيراً من الإصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الإصلاحات القضائية ، إذ كان يشرح للمجلس آراء النظارة ونيَّاتها ، ويناضل عنها ، ويبحث عن حل يرضى الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك ، وإنه ليصعب تعويض ما خسرناه

(١) ص ١٠٥٤ وما بعدها ، وفى مواضع متفرقة ، ويمكن الرجوع أيضاً إلى الكتاب التذكارى الذى صدر تحت إشرافنا عن المجلس الأعلى للثقافة ص ٣٨٣ . والكتاب بعنوان « الشيخ محمد عبده مفكراً عربياً ورائداً للإصلاح الدينى والاجتماعى » .

بموته نظراً لسمو مداركه وسعة اطلاعه وميله لكل دروب الإصلاح ، والخبرة الخصوصية التى اكتسبها أثناء توظُّفه فى محكمة الاستئناف وسياحاته إلى مدن أوربا ومعاهد العلم . كانت النظارة تريد أن تكل إليه أمر تنظيم مدرسة القضاة الشرعيين المزمع إنشاءها ومراقبتها مراقبة فعلية ، أما الآن فإنه يتعذر وجود أحد غيره حائز للصفات اللازمة للقيام بهذه المهمة ولو بدرجة تقرب من درجته ، فلكل هذه الأسباب أخشى أن نظارة الحقانية ستظل زمناً طويلاً تشعر بخسارتها بفقده.

(٢) شهادة الأستاذ الحكيم السيد عبد الرحمن الكواكبى :

سأل سموُّ الخديوى عباس حلمى العالم الحكيم الشيخ عبد الرحمن الكواكبى: كيف رأيت الشيخ محمد عبده ؟ قال:إن إفريقية أخرجت كثيراً من العلماء فى العلوم والفنون المختلفة دون الفلسفة ، ولكنها أخرجت فيلسوفاً واحداً بزَّ جميع الفلاسفة هو ابن خلدون ، وكذلك مصر أخرجت من لا يحصى من العلماء دون الفلاسفة والحكماء ، ثم أخرجت أخيراً حكيماً فاق جميع الحكماء، وهو الشيخ محمد عبده ، سمعت هذا من فم الكواكبى .

وكان الكواكبى يعتقد أن الشيخ محمد عبده أعلم من أستاذه الأفغانى ، وأنه هو الذى كبَّر صيته بالعلم ، وهذا غلط منه[1] .

(٣) شهادة لورد كرومر السياسى الإنجليزى :

شهد لورد كرومر فى تقريره عن مصر والسودان عام ١٩٠٥ م بأن الحزب الإسلامى الذى كان زعيمه الشيخ محمد عبده هو الحزب الوسط بين الحزب المحافظ على التقاليد العتيقة الذى يحارب المدنية وينبذها ، وبين حزب المتفرنجين المارقين من الدين ، وأنه هو الحزب الذى يُرجى أن تنهض به البلاد لأنه جامع بين الترقى المدنى والمحافظة على الدين .

ونُقل عنه أنه قال إن هذا الرجل لا ذنب له إلا أنه أنور أهل بلاده . وقد سئل

(١) نرى من جانبنا أن رشيد رضا قد جانبه الصواب ، والصحيح ما قاله الكواكبى ، والذى توفى عام ١٩٠٢ م ويمكن للقارئ معرفة صواب رأى الكواكبى إذا رجع إلى ما كتبناه فى هذا الفصل عن جمال الدين الأفغانى .

اللورد عن الشيخ : هل كان متساهلاً فى الإسلام ؟ فقال : بل هو متعصب له أو فيه ، ولكن بالعقل .

وقال له أحد وجهاء المصريين : إن كل أعمال جنابكم محصورة فى إصلاح الحكومة فنرغب إليكم أن تعملوا عملاً لترقية المسلمين ، فإنهم تعوَّدوا الأعمال الاجتماعية . فقال اللورد : اعملوا أنتم ، وعلىَّ أن أساعدكم ، فمن لا يرقِّى نفسه لا يرقِّيه غيره . قال المصرى : إنه ليس عندنا رجال يهمهم أمر الأمة ، ويقدرون على العمل النافع لها . فقال اللورد : بل عندكم رجلان غيوران مقتدران ، وهما الشيخ محمد عبده ، ورياض باشا ، فساعدوهما بالمال ، وهما يعملان للبلاد ما تحتاج إليه من الترقِّى .

(٤) شهادة الدكتور يعقوب صروف :

قال الدكتور يعقوب صروف - صاحب « المقتطف » -: لما أكثر المؤبِّنون فى حفلة الأربعين من وصف الأستاذ بكلمة (فقيد الإسلام وفقيد مصر) : إننا لا نرضى بأن يكون فقيدكم وحدكم ، بل نقول إنه أكبر من ذلك ، إنه فقيد الشرق كله . وقد بيَّن هذا مفصَّلاً فى مجلة « المقتطف » ، فتُراجَع فى الجزء الثالث من هذا التاريخ ، ومنها قوله فى أنواع أعماله: «وتارة مفسراً قواعد الدين تفسيراً يقبله العقل المستنير ، وتصلح به شؤون الأمم ، وينطبق على مصالح الزمان » .

ثم قال : « وتارة مبيناً بالحجج القاطعة أن الدين لا يمنع الارتقاء والأخذ بأسباب العمران ، بل يحث عليها ، ومظهراً الشوائب والبدع التى دخلت عليه فأضرَّت أهله ، وهى ليست منه فى شىء ، بل يتبرأ منها وينهى عنها » .

(٥) شهادة الشيخ إبراهيم اليازجى الأديب اللغوى :

قال فى مجلة «البيضاء» : وكان متوقد الفؤاد ، ثاقب البصيرة ، قوىَّ الحجَّة ، ذرب اللسان ، بليغ العبارة ، إذا وقف للخطابة كان كأنما يتلو عن ظهر قلبه ، فلا يتوقف ولا يتلكأ ، ولا تجد فى كلامه لفظة ركيكة ولا تركيباً سخيفاً ، حتى لو كتبت لفظه الذى يقوله على البداهة ، وجدته كأحسن ما ينشئ المترسِّلون من

الفصحاء ، وكأنه آية من آيات الله فى قوة الحفظ وسرعة التناول ، حتى أنه تعلم الفرنسية وهو فوق الأربعين ، فلم يأتِ عليه إلا شهر حتى كان يجيد فهمها، ثم كان يتكلم فيها كأحد أهلها ، ولم يُرْوَ مثل ذلك إلا عن أستاذه السيد جمال الدين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

(٦) شهادة الأستاذ جورجى زيدان المؤرخ السورى :

قال فى مجلته « الهلال » بعد نشر مجمل من ترجمته ومناقبه وأعماله : على أن عظمته الحقيقية لا تتوقف على ما تَقدَّم من أعماله الخيرية أو العلمية أو القضائية، وإنما تُقوَّم بمشروعه الإصلاحى الذى لا يتصدى لمثله إلا أفراد لا يقوم منهم فى الأمة الواحدة مهما طال عمرها إلا بضعة قليلة ، وهذا ما أردنا بسطه على الخصوص من هذه العجالة . ثم بسطه وذكر خطته وخطة أستاذه السيد ، وضرب له المثل بمصلح النصرانية (لوثر) فقال إنه أول من جاهد فى سبيلها ، وقد فاز بجهاده لقيام السياسة بنصرته . وأما مصلح الإسلام ، فكانت السياسة ضده ، وإنما حمله على تلك المجاهرة حرية ضميره وجسارته الأدبية ومنصبه الرفيع فى الإفتاء .

وقال فى محاولته إصلاح الأزهر : إنه لم ينجح فيه إلا قليلاً ، ولكنه وضع الأساس ، ولا بد من رجوع الأمة إلى تأييد هذه النهضة ولو بعد حين ، فيكون له الفضل فى تأسيسها .

(٧) شهادة نعوم أفندى لبكى الكاتب اللبنانى الحر :

قال فى جريدته « المناظر » التى كان يصدرها فى (سان باولو) عاصمة البرازيل : إن فجيعة النصارى بموت الإمام ليس لأنه كاتب ، وليس لأنه خطيب ، وليس لأنه لغوى . ثم بيَّن العلة الصحيحة للفجيعة، وهى قوله : « هو الذى استخدم كل ما وضعت فيه الطبيعة من المقدرة فى سبيل إصلاح الإسلام ، ومَنْ أصلح الإسلام فقد أصلح الشرق ، فمحمد عبده هو مصلح الشرق ، وهذا ما يجعلنا نخشع لموته ونكبر لمصابه ، لأننا شرقيون وفينا روح وطنى ».

(٨) شهادة صاحب الدولة رياض باشا وزير مصر الأكبر :

قال رياض باشا وزير مصر الأكبر للشيخ عبد الرحيم الدمرداش ، وكان ملازماً لفراش الفقيد فى مرض موته : إننا كلنا شاكرون لك ، فإنك لا تخدم رجلاً ، وإنما تخدم الأمة فى هذا الرجل . وقال فى موته : خسارة لا تُعوَّض .

(٩) شهادة صاحب السماحة الأستاذ محمد توفيق البكرى :

لما سمع السيد محمد توفيق البكرى نبأ وفاة الأستاذ الإمام وهو فى أوربا ، لم يصدِّق الخبر ، فلما عاد إلى مصر أخبرنا بأنه لم يصدِّق الخبر إلا بعد عودته إلى مصر ، وعلَّل ذلك بأنه كان يخال الموت لا يتجرأ على الشيخ محمد عبده . وقال : لقد ترك الشيخ فراغاً لا يسدُّه أحد ، فإنه كان - كما قال المتنبى - ملء السهل والجبل. ولو ترك مناصب الحكومة وعمل مستقلاً لأحدث انقلاباً عظيماً . وكان هذا رأى كثير من الناس .

(١٠) شهادة قاسم بك أمين فى تأبينه :

إذا أصيبت أمة من الأمم الغربية بفقد رجل من رجال العلم أو الأدب أو السياسة ، كانت تعتمد عليه فى إصلاح شأن من شؤونها ، قال قومه : ليس فى الوجود إنسان لا يُعوَّض . ووجدوا فى الحال بين أهل طائفته - أو صناعته - من يسد الفراغ الذى تركه ، ويأخذ مكانه . أما الحال عندنا فليس كذلك ؛ مهما قلَّبنا النظر ، ودقَّقنا فى البحث والتفتيش فلا نجد فى أمتنا من يعوِّض علينا ما خسرناه بفقد أستاذنا الشيخ محمد عبده ، لا أقول ذلك محاباة لصديق كانت محبته من أسباب الشرف والسعادة لشخصى ، ولا موافقة للعادة المتبعة فى رثاء المتوفين ، حيث يحسن غَضُّ النظر عن عيوبهم ، ومنحهم صفات وفضائل لم يعترف لهم أحد بشىء منها مدةَ وجودهم بين الأحياء ، وإنما هذا هو الحق الذى يجب إعلانه اعترافاً لمصرى وصل إلى أسمى مقام لا يمكن أن يناله إنسان فى هذه الحياة - مقام لم يستمد وجوده من منصب عالٍ فى الحكومة ، ولا من رتبة رفيعة ، ولا من ثروة طائلة ، ولا من نسبة إلى بيت قديم ، ولا من شىء آخر من

ألقاب الشرف المعروفة التى اختُرعت لتحل محل شرف النفس ، مقامٍ اهتدى إليه بشعوره ، واكتسبه بجدِّه وجهده ، وحافظ عليه بقوة إرادته وحسن سياسته وخدم فيه بعلمه وعمله ، مقامٍ مكَّنه من أن يمسك بيده زمام أمة بأسرها ، ويحركها نحو الخطة التى رسمها ، ويسوقها إلى طريق المستقبل الذى هيَّأه لها - مقام الإمامة بأوسع معناها ، تركه الشيخ محمد عبده، ولا يوجد فى مصر واحد يجرؤ على أن يدَّعى فيه استحقاقاً بعده .

(١١) شهادة أحمد لطفى بك السيد :

قال فى حفلة تأبينه فى الجامعة المصرية سنة١٣٤٠هـ ، فى الكلام على مركز مصر العلمى فى مسابقة الأمم الحية :

على هذا الاعتبار يجب علينا أن نتخذ نهضتنا العلمية الحاضرة بشير الرجوع إلى مضمار المسابقة العلمية العامة ، وأن نوطد أنفسنا على العمل بجدٍّ للاستعداد لهذه المسابقة ، ومن صنوف العدة أن يتبين حقيقة مركزنا العلمى ، وليس مركزنا العلمى شيئاً آخر إلا تقدير ما أنتجت بلادنا من النوابغ الذين هم أركان نهضتنا الحاضرة - أولئك هم مصابيح الماضى ، تنبعث منها أنوار الهداية الساطعة ، فتكشف للحال طريقه إلى الأمام فى ظلمات الاستقبال .. وأكبر هؤلاء النبغاء هو أستاذنا الإمام محمد عبده .

(١٢) شهادة سعد باشا زغلول الزعيم المصرى :

قال لى : إذا كان شيخنا قد عجز عن الإصلاح الأزهرى ، وقد أُوتى من العلم وقوة الإرادة والعزم ما لم نُؤْتَ ، فماذا يمكننى أنا أن أفعل فى إصلاحه .

ويقول رشيد رضا عن شهادة سعد زغلول : لو أراد سعد أن يكتب كلمة فيما يعلمه من مناقب أستاذه لتدوَّن فى التاريخ لكتب ما هو أبلغ من كل ما رويناه عن غيره ، لأنه أعلم من غيره بسيرته من أول نشأته الفاضلة إلى نهايتها الكاملة، ومن أقدرهم على بيان ما يعلم .

(١٣) شهادة إبراهيم باشا نجيب :

قال إبراهيم باشا نجيب المصرى وكيل نظارة الداخلية : إن الناس لن يعرفوا قيمة الشيخ محمد عبده الحقيقية إلا بعد ثمانين سنة ، أى : بعد انتهاء جيلين فى التربية الاجتماعية .

(١٤) شهادة محمد طلعت باشا حرب زعيم النهضة الاقتصادية بمصر :

قال فى أول مقالة نشرها فى جريدة (إيجيبت) باللغة الفرنسية ما ترجمته : لقد خسرت مصر والعالم الإسلامى خسارة كبيرة بموت الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ، وسيبكى خسارة هذا الرجل جميع المسلمين على اختلاف بلادهم ومذاهبهم ، فإنه كان من أكبر رجال الإسلام الذين كانوا يتمنون إرجاعه إلى مجده السابق .

(١٥) شهادة الدكتور عبد العزيز بك نظمى :

قال فى أول تأبينه من مجلة «الحكمة» ما نصه :

رُزِئَ العالم الإسلامى فى السابع من جمادى الأولى رزءاً لم يذق مرارته مذ طوت الأيام حماة الإسلام الأُوَل : رُزِئَ فى إمام عظيم وعليم حكيم ، جمع إلى جهاد الخلفاء الأربعة فى إقامة الدين والدنيا اجتهاد الأئمة الأربعة فى تقويمهما ، رُزِئَ فى خير من سعى بعد رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين فى إعلاء كلمة الله وتجديد ما أخلقت الأيام من فضائل الإسلام ودفع مفتريات أعدائه عنه ونفى البدع منه ، رُزِئَ فيمن كان للهدى علماً ، وللعلم مناراً ، وللتشريع حجة ، ولمصالح الأمة حافظاً ، ولأيتامها أباً وأىّ أب ، رُزِئَ فى فضيلة الأستاذ العلَّامة الشيخ محمد عبده - رضى الله عنه وأرضاه .

(١٦) شهادة حافظ أفندى واصف الأديب القبطى المصرى :

قال فى أول تأبينه من مجلته «المحيط» : « أجمع العقلاء من كل أمة فى هذه الديار أن انتقال هذا الفقيد الكريم كان أعظم خسارة خسرتها الأمة الإسلامية خصوصاً ، والمصرية عموماً فى التاريخ الحديث » ثم بيَّن ذلك .

ونقول من جانبنا ، وبعد هذا كله : لقد مات الشيخ محمد عبده وترك الكثير من الآثار الفكرية ، وترك أيضاً العديد من البصمات فى مجال الفكر الدينى والفكر الكلامى والفكر الإصلاحى ، سواء ما تعلق منه بالأزهر أو ما تعلق منه بالحياة الاجتماعية والثقافية التى نحياها . وكان البقاء والخلود له ، وليس لهؤلاء الذين أثاروا المعارك الظالمة ضده . ماذا بقى من خصومه ؟ لا شىء فى دنيا الفكر والثقافة. ولكن اسم الشيخ الإمام محمد عبده - بصرف النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معه فى بعض الآراء - سيظل محفوراً فى قلوب ووجدان أمتنا العربية ، وكما سبق أن أشرنا ، سيبقى فى ذاكرتنا مدى حياتنا ، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها « والذكر للإنسان عمر ثانٍ » .

* * *